الفصل السابع

احساس المرأة (تابع)

الاميال التي مرجعها الغير

يظهر للمتبصر في خلق المرأة انها جعلت للحياة الاجتماعية اكثر مما جعل لها الرجل. فانها لا تطيق العزلة والانفراد. فلئن عمد بعض الرجال في احوال استثنائية الى طلب الوحدة وهجر العالم ومن فيه بقصد التكفير واماتة النفس ـ وكأن في ذلك اعترافاً بخروجهم عن سنة الطبيعة ـ فانا لا نعرف امثلة لنساء عمدن الى ذلك. بل ان كلمة « ناسك » في معظم اللغات ليس لها مؤنث. لانه لم يحدث ـ على ما نعلم ـ ان تنسكت امرأة في زمن من الازمان. فقد فطرت النساء على حب المعاشرة والمؤانسة ولا قدرة لهن على مقاومة هذا الميل الغريزي

رأينا ان المرأة تسعى لاسترضاء الرجل واستمالته وانها تبذل جهدها لتكون مستحبة اليه. تلك حاجة متأصلة في فطرتها. على أن في تلك الفطرة حاجة أخرى اكثر تسلطاً على نفسها واشد اثراً في حياتها. فلئن ودت أن تكون محبوبة فانما رغبتها الاولى أن تكون هي الحابة. ولعل ما تبذله من قبيل استرضاء الرجل واستمالته ليس الا نتيجة لتلك الرغبة المتمكنة من خلقها. وعلى كل حال فهذان الميلان مترابطان. فالغالب ان يكون الحب متبادلاً كأن تلك العاطفة تسري بالعدوى اذا انبعثت من قلب الى قلب لم تلبث ان تنعكس وترد الى مصدرها. على ان هذه القاعدة لا تصح دائماً فقد يحب احدهم ولا يكون محبوباً او قد يكون محبوباً من غير ان يحب

ومهما يكن الامر فلا ريب في انه خير للانسان ان يحس احساس الحب بنفسه من ان يكون موضع ذلك الحب ولا يحسه. فمن ذلك نرى ان عاطفة الحب في الانسان ـ اي الحب الموجه الى غيره ـ اشد من حبه لذاته. ويتضح ذلك جلياً متى تنازعت العاطفتان في قلب واحد. فان حب الذات لا يلبث أن يضأل ويضمحل بازاء الحب الحقيقي. قال لاروشفوكو: « ان اعظم عجيبة يحدثها الحب ملاشاته لحب الذات وابطاله طلب الظهور والتأثير »

أجل تلك عجيبة الحب التي تبلغ ارقى صورها متى أحبت المرأة حباً خالصاً شديداً . ولكن أليس هذا الحب نادراً ؟ وهل عاطفتها هذه أشد من عاطفة الرجل ؟ لا ريب عندي في ذلك فالحب محور حياتها . على ان حب الرجل قد يعادل حب المرأة قوة واخلاصاً ولكن حبه لا يشغل في حياته المكان الذي يشغله حبها في حياتها . فان له مطامح اخرى ولله در من قال : « الحب جزء من حياة الرجل ولكنه كل حياة المرأة » . فانها سواء كانت زوجة او والدة او اختاً انما تحيا بهذه العاطفة التي تستجمع كل عنايتها واهتمامها ، في حين ان للرجل مهام مختلفة جسدية وعقلية ومشاغل تسترق فكرهُ وانتباهه بل قلبه ايضاً

حب الام

وتظهر هذه العاطفة في صور مختلفة ولكن أهمها بلا ريب ومحورها جميعاً حب المرأة لحبيبها ، وحبها لأولادها . على ان هذه العاطفة الاخيرة أعم في النساء وأشد . ولئن جاز وصف بعض النساء بانهن زوجات أصلح منهن أمهات فذلك انما يكون من قبيل الشذوذ لان الامومة هي غاية المرأة القصوى . اما الرجل فمن الطبيعي ان يكون زوجاً أفضل منه اباً ، ولا سيما اذا كانت امرأته في ربيع الشباب وأولاده لا يزالون في دور الطفولة . وفي معظم الحوادث تجد انعطاف المرأة إلى صغارها أشد من انعطاف الرجل اليهم . فكأن الطبيعة خصتها بهذا الشعور العجيب نحوهم كما خصتها أيضاً بوظيفتها الوثيقة الارتباط بهم والتي لا يستطيع ان يقوم بها أحد سواها . فهي تحبهم بكل جوارحها ـ تحبهم حباً جماً خالصاً من كل شائبة ، ولا سيما في أول حياتهم اذ يكونون في اشد الحاجة الى كنفها وعطفها . ذلك هو الحب الطاهر الذي لا تمازجه الانانية ولا يداخله غرض أو مصلحة . وما كنا لنعلم المبلغ الذي يبلغه الحب والتضحية في هذا العالم لولا قلوب الامهات

ولما كانت هذه العاطفة أسمى عواطف المرأة واظهرها فقد قيل انها كلما أحبت داخل حبها شيء من حب الام . أما العناصر التي يتألف منها ذلك الحب فاهمها الرفق والحنان نحو الطفل الضعيف المفتقر الى الاسعاف . على ان هذا الرفق وذلك الحنان يفيضان من قلب المرأة ويغمران كل ما كان ضعيفاً كالطفل مفتقراً مثله الى الاسعاف .

ولعل هذه الغريزة تلطف فيها ميلها الى الاعجاب بالقوة ـ وهو كما رأينا نتيجة ما هي فيه بحكم الاضطرار من الاعتماد على الرجل والاستناد على قوته . فتراها في الغالب رقيقة الشعور شديدة الحنو نحو من يسترحمها أو يسلم اليها امره . قالت مدام دي ريموزا : « لا بد لمن يبتغي منها خدمة ان يبين لها ما يترتب على عملها من السعادة للغير » . واذا اسعفت احداً لا تلبث ان تندفع في سعيها وتطلب المزيد . هذا هو كرم نفسها . فلئن اظهرت حباً لذاتها في ميدان المنافسة وطلب الظهور فانها ـ حين يطرق قلبها من باب الرحمة بدلاً من ان يلقى فيه الرعب والجزع ـ تتدفق غيرة ومحبة وانكاراً لنفسها. بل ان في حنان المرأة ورقة قلبها خطراً عليها عظيماً بيّنه غير واحد من الكتاب الاخلاقيين . فقد تجرها الشفقة والرأفة والحنان الى ما لا تحمد عقباه وتوقعها في الاشراك التي تكتنفها . وعلى كل حال فلا ريب في ان مشهد الضعيف متى كان في حاجة الى الاسعاف والاغاثة يؤثر في نفسها ويستهوي قلبها اكثر من مشهد القوي المنتصر . وقد يحملها ذلك المشهد على بذل مالها والتضحية باغراضها في سبيل من يستعطفها ويطلب معونتها . وليس ادل على تفوقها من هذا القبيل مما ذكره أحدهم في مقدمة كتاب عن العميان قال : « كثيراً ما تقترن فتاة بصيرة بضرير ولكن يندر ان يقترن البصير بضريرة . وما ذلك الا لان اقتراناً كهذا يستدعي تضحية لا يستطيعها معشر الرجال »

ولا حاجة للاسترسال في ايراد الامثلة المثبتة لانعطاف المرأة ورقة احساسها . فان هذه الصفة واضحة جلية في خلقها . وانما ينبغي لنا الآن ان نستطرد الى ذكر ما يترتب على هذا الميل فيها . فلول ما يترتب على ذلك كفاءتها لتربية الناشئة ولا سيما في أول ادوار التعليم ، وأهليتها لتهذيب الاولاد المتشردين ، بل اصلاح المجرمين منهم وتقويم نفوسهم . فلعطف المرأة وطول اناتها ودقة عنايتها شأن في كل ذلك ليس للرجل

ولا تقتصر هذه الغريزة على الاولاد والمرضى والمحتاجين بل تتناول كل المخلوقات طالما لم يقم في سبيلها غريزة اخرى . فهي سر جاذبية المرأة وسر كياستها ولطافتها وحسن معاشرتها . ولذلك فالمرأة خير الروابط الاجتماعية وبها تُزهى المحافل والمجالس اذ يضطر الرجال في حضورها الى خلع رداء الخشونة والظهور بافضل ما لديهم من السجايا والمواهب . فكأن وظيفة النساء ـ حسب قول فولتير ـ هي تهذيب أخلاق الرجال

وليس من غرضي أن أذكر حوادث فردية يتجلى فيها عطف المرأة . وانما اقتصر

على مثل واحد شاهدته بنفسي في أحد المصايف : وذلك ان احدى السيدات رقت المشاق التي تتحملها الخيل والحمير في تلك الجهة فكانت كلما رأت حيواناً منها متعباً خائر القوى استأجرته لليوم التالي حتى يتاح له ان يستريح يوماً

المخاصمة

ولكن كيف نعلل مع رقة المرأة وعطفها وحنانها ما وصفها به غير واحد من القسوة والرداءة وحب الخصام والمشاحنة . فتلك صفات يكاد الرأي العام يكون مجمعاً عليها . بل ان الكتاب الاخلاقيين ايضاً لم يخففوا من صرامة هذا الوصف . قال فيفس : « لا تكون المرأة رقيقة الا مع من تحتاج اليه » . ولكن هذه التهمة باطلة . وانما يقال على الاجمال أن العواطف على انواعها تتعاقب في قلب المرأة . فقد تملك فيه بالتتابع عاطفتان متباينتان وتبلغ كل منهما اقصى قوتها . وما ذلك الا لان المرأة كما قلنا ميالة بفطرتها الى التطرف . فالعاطفة التي تشغل قلبها لا تلبث أن تتضخم فيه وتقوى على سائر العواطف . وكما ان القسوة والرداءة والخصام قد تنشأ عن حب الذات وطلب الظهور فقد تنشأ ايضاً عن حب الغير متى تعرقل ذلك الحب . فليس من حقد أشد من ذاك الذي يتأتى عن الحب حين يهان او يهدد

اما فيما يخص حب الخصام والمشاحنة فليس من العدل اتهام المرأة وحدها بذلك . اذ لا بد للتخاصم والتشاحن من اختلاف شخصين وقلما يكون اللوم أحدهما دون الآخر . وقد اتخذ الكثيرون هذه التهمة موضوعاً للهزء والسخرية . فمن ذلك الجملة التالية التي اقترح نقشها على قبر زوجين : « قف يا هذا وانظر اعجوبة : رجل وامرأة لا يتخاصمان » . على ان الرجل والمرأة في الحقيقة متساويان بكونهما أشد لطفاً وادباً في خارج منزلهما منهما في داخله . حتى ان كاتباً قال يصف رجلاً : « لقد كان لطيفاً بشوشاً . . . حتى في داره » اشارة الى ندرة ذلك . ولا بد من تقويم هذا الميل بالتربية الصالحة

بل اذا سلمنا بان ميل المرأة الى الخصام والمشاحنة أشد من ميل الرجل تيسر لنا تعليل ذلك بشبه ثوران يحدث في نفسها من جراء الضغط الذي تتحمله كأنها تنتقم لنفسها بحدتها واندفاعها

ولنذكر الآن الصفات التي تميز غريزة الانعطاف الفطرية في قلب المرأة

قصر المجال

أول ما يجب ذكره من ذلك ان المرأة تحفل بالاشخاص اكثر مما تحفل بالآراء والمبادئ . أي ان عنايتها تنصرف الى شخص أو اشخاص اكثر من انصرافها الى رأي او آراء . قالت مدام غيزو : « قلما تحفل معشر النساء بمجرى الحوادث العمومية » . ولعل جانباً من هذا الميل يرجع الى التربية والعادات المألوفة . والامر الراهن على كل حال هو أن المرأة قلما تشغل قلبها بشؤون عمومية كالتعاون الاجتماعي والاخاء البشري وحب الانسانية ونحو ذلك وانما تنصرف بكليتها الى افراد معلومين تبذل لهم كل ما في نفسها من عطف وعناية

قال الفونس دوده الروائي الفرنسي : « متى احبت المرأة لا ترى غير حبيبها . فكل ما فيها من رأفة وحنان ووداد وطيبة وتضحية يوجه اليه ـ واليه وحده » . على أن هذا القول لا يصح بحروفه الا اذا اردنا الحب بحصر المعنى ، أي العشق والغرام . ومع ذلك تجد عطف النساء بوجه الاجمال محصوراً في بعض الافراد : فكما انهن يلجأن بحكم الطبيعة الى عناية اشخاص معينين كذلك تتجه عنايتهن الى اشخاص معينين أيضاً . قال أحدهم يصف ما كان من تأثير صديق جاء يعزي صديقة له نزل بها مكروه : « ان ما فرّج عن قلبها لم يكن ما سمعته من التعزية بل كان شخص المعزي نفسه . وبذلك اظهرت انها امرأة في الحقيقة » . ولهذا السبب لا تستطيع المرأة ان تحسن أو تصنع خيراً ما لم تحصر عنايتها في مجال ضيق محدود . وذلك ما يجعل عملها أشد تأثيراً

قال اميال : « المرأة التي تتلاشى في من تحبه انما تجاري وحي الغريزة وتستحق أن تسمى امرأة بالمعنى الحقيقي . لان تلك الملاشاة طبيعية في كل امرأة مجبولة من طينة جنسها . وبعكس ذلك الرجل الذي ينصرف بكليته الى تعبد امرأته ويقف حياته على خدمتها فانه نصف رجل فقط . ومن كان كذلك لم ينل احترام الناس بل لعل النساء ايضاً لا يحترمنه في سرهن . فالمرأة التي تحب حباً حقيقياً تود من صميم فؤادها أن تضيع ذاتيتها لتدغمها في ذاتية الرجل الذي اختاره قلبها حتى تزيده عظمة وقوة ونشاطاً .

وبذلك يقوم كل من الجنسين بوظيفته حق القيام : لان المرأة معدة للرجل والرجل معدّ للمجموع . فكأنها جعلت لواحد في حين انه جعل للجميع . ولن يجد كل منهما راحته وسعادته الا بمعرفة ذلك القانون والرضوخ لحكمه »

على ان في هذا الكلام الجميل شيئاً من المغالاة . فليس من رأيي انه مكتوب للمرأة أن تكون ملكاً خاصاً لرجل واحد وأن تلاشي ذاتيتها في محبته . فانما جعلت المرأة لمشاركة الرجل بالذات الانسانية جمعاء الجسمانية والعقلية والاجتماعية . بل ان الرجل العاقل العادل لا يتطلب هذا التكريس . فلئن تحتم على المرأة ان يكون حبها ـ بالمعنى المحصور ـ مقصوراً على زوجها فليس من الانصاف ان يكون كل ما لديها من عطف وحنان في حوزته وحده ، بل ينبغي ان يتناول ذلك بيئتها وبني جنسها . ولا بد من اصلاح التربية في هذا الشأن حتى تحس المرأة ارتباطها بما حولها وبمن حولها وتدرك واجبها نحو وطنها وقومها ، بدلاً من ان تقتصر وظيفتها على العناية بالمنزل كما هو الحال الى هذا اليوم . فان قلب المرأة يمتلئ في الغالب بحبها لاولادها واسرتها وفيما عدا ذلك يظل مقفلاً لا تنفذ اليه عاطفة اخرى

ولا غرابة في ان يشعر الرجل بحب الوطن اكثر مما تشعر به المرأة . فان له بوطنه علاقة مباشرة . أما المرأة فيندر ان تحس مثل ما يحس . وانما يقتصر احساسها من هذا القبيل على التعلق بالامكنة التي ألفتها منذ صغرها أو التي عاشت فيها زمناً طويلاً . وما هذا الا ضعف في خلقها ينبغي ملافاته بتوسيع الدائرة المشمولة بحبها وحنينها

ومثل ذلك يقال في حب الانسانية جمعاء . فبينما تجد المرأة سريعة العطف على فقير يقرع بابها أو تاعس يتألم أمامها قلما تفكر في الآلام والشرور العامة ـ كاحوال العمال مثلاً ـ بل ان سواد النساء لا يتأثرن الا مما يرينه رأي العين . وفيما سوى ذلك يتعذر عليهن تصور ما يلم بالطبقات السفلى من المصائب والبلايا ، في حين يكن هنيئات متمتعات برغد العيش وطيبه . ذلك ايضاً نقص في تربية البنات يجب الالتفات اليه والتحوط له

التقلب

وما عسى ان نقول الآن عن تقلب المرأة ؟ هل صحيح ما تتصف به عادة من التنقل والتلون ؟ لقد اكثر الكاتبون من اتهامها بهذه التهمة . فقالوا : « ليس من

طبيعة المرأة ان تكون ثابتة » وقالوا عنها انها « كالريشة في مهب الريح . . . » . على اني لا أعتقد صحة ذلك مع تداوله على الألسنة . فانما تتغير رغائب المرأة حين لا تحب حباً شديداً . وما ذلك الا نتيجة قعودها عن العمل وخلو فكرها من المشاغل ــ وهو ما تمكن ملافاته بتفتيح ذهنها وتعويدها النظر الى الشؤون الجدية ــ ولكنها متى أحبت الحب الصحيح تعلقت بكل قواها ولا ريب عندي في تفوقها اذ ذاك على الرجل من قبيل ثبات الحب وطهارته . فانما يبدو الملل والاهمال من جهة الرجل اولاً اما المرأة فحبها يتزايد كلما استرسلت فيه ويتضاعف مع ما تبذله في سبيله . قال اليبر : ليس الشقاء عائقاً لحب المرأة متى احبت باخلاص » وقلما تجد امرأة يتغلب فيها كبرياؤها على عطفها وودادها لمن تحبه ويحبها

الصداقة

بقي ان نقول كلمة عن صفة ثالثة في خلق المرأة أجمع الناس على وصفها بها . فانها ــ بحسب الرأي الشائع ــ لم تجعل للصداقة الصحيحة . قال لابروير : « الرجال يفوقون النساء في ما يتعلق بالصداقة » وقال لاروشفوكو : « اذا ذاقت المرأة طعم الحب لم تستلذ الصداقة » . وقال مثل ذلك كثيرون ــ فضلاً عن الذين قالوا ما هو أشد منه

على اني أشك في صحة هذه الاقوال . وفي اعتقادي ان الصداقة المتينة الخالصة من كل شائبة نادرة بين الرجال والنساء على السواء . فليس في طبيعة المرأة ما يحول دون تلك العاطفة ــ وان اختلفت مظاهرها في الفريقين . فصداقة النساء خالية في الغالب من التعقل والرزانة والجرأة على النصح والتأنيب وهو ما تقتضيه الصداقة الحقة . ولكنها من جهة أخرى أشد حماسة واكثر حمية واندفاعاً

وينحصر ما تتهم به المرأة من هذا القبيل في وجهين : الاول انها لا تصادق بنات جنسها لما يحول دون تلك المصادقة من الحسد والمنافسة . والثاني انها لا تصادق الرجال لان صداقتها لهم لا تلبث ان تتحول الى عاطفة أخرى هي عاطفة الحب

اما فيما يخص التهمة الاولى فاني أسلم بان الصداقة الحقيقية نادرة بين النساء ــ وان بلغت بين الفتيات احياناً مبلغاً عظيماً ، فانها لا تلبث ان تضمحل وتتلاشى بعد الزواج اذ تشغل قلوبهن عواطف أخرى . ثم ان الصداقة بين النساء سطحية في الغالب ولذلك

قال بول بورجه الروائي الفرنسي : « تختلف صداقة النساء عن صداقة الرجال بأن هذه الاخيرة لا تقوم الا بالثقة المتبادلة في حين ان الاولى لا تحتم تلك الثقة . فالصديقة لا تصدق دائماً ما تقوله لها صديقتها . . . على ان ما بينهما من التحذر المستديم لا يمنعهما من تبادل الود والانعطاف » . ومع ذلك فتصادق النساء ليس محالاً رغم العقبات التي تحول دونه

قال ديدرو : « قلما تتحابُّ النساء ـ الا انهن مرتبطات برابطة خفية تحملهن على الذود عن مصالحهن المشتركة . فقد تكره الواحدة زميلة لها وتتصدى مع ذلك للدفاع عنها » وقد دعى شوبنهور تلك الرابطة الجنسية « ماسونية النساء » ولعل ذلك دليل على انهن يفهمن معنى التعاون والتكاتف

بل أعتقد ان الصداقة ممكنة بين رجل وامرأة . وليس اللوم كله على النساء اذا ندر ذلك . فلا ريب عندي في ان المرأة تستطيع في بعض الاحوال مصادقة أشخاص معاومين . والامثلة على ذلك كثيرة

قال لابرويير : « اذا اجتمعت لدى المرأة الجميلة صفات الرجل الطيب كانت عشرتها ألذ ما في العالم اذ تجتمع فيها فضائل الجنسين »

ولئن أنكر البعض وجود تلك الدرة الثمينة فما ذلك الا لكونهم لم يعثروا عليها . وامثال هؤلاء خليقون ان نرثي لحالهم

الفصل الثامن

احساس المرأة (تتمة)

العواطف المركبة والعواطف السامية

لقد وصلنا الآن الى طبقة من العواطف يجوز لنا أن نسميها سامية لانها لا تحوم حول الاشخاص بل تتناول أموراً معنوية وتتعلق بمنازع نفسية عالية كالشرف ـ والعدل والحقيقة . فكيف تحس المرأة احساس الخير واحساس الحق واحساس الجمال والاحساس الديني ؟ ليس من ينكر وجود هذه المنازع السامية في قلب المرأة فانه يحوي سجايا البشر الاساسية . ولكن يدعي البعض انها ليست واضحة جلية في المرأة وانها تضأل في الغالب وتتلاشى بجانب اميالها الغريزية المختلفة التي ذكرناها فيما تقدم . فالمرأة في نظرهم شديدة الاهواء يتعذر عليها أن تكون منصفة ، كما انها كثيرة الطيش لا يمكن ائتمانها على سر ذي شأن . وقس على ذلك

* * *

وقبل خوض هذا المبحث يجدر بنا أن نذكر طبقة من العواطف المركبة الناشئة عن تفاعل الاميال التي ذكرناها في الفصلين السابقين . فقد درسنا نوعين من الاميال : ما يرجع منها الى الذات وما يرجع الى الغير . فهذه الاميال تتركب احياناً وتتفاعل بصور مختلفة فتشغل الجانب الاكبر من حياة المرأة ولا تترك لها مجالاً للتمتع بالمشاعر السامية التي هي موضوع هذا الفصل . وسندرس اولاً خلقين مركبين من عناصر انانية وعناصر غيرية معاً ، ثم نعكف على درس العواطف السامية

الغيرة

الغيرة مزيج من حب الذات وحب الغير . وتكاد تكون هذه العاطفة من مميزات النساء . قال احدهم : « تغار المرأة على كل شيء : على زوجها ، وعلى اولادها تزوجوا او لم يتزوجوا ، وعلى صديقاتها الخ . . . ومما يؤجج نار الغيرة في قلبها الحساس خيالها الذي يخلق لها في بعض الاحيان عالماً وهمياً لا وجود له الا في مخيلتها »

ولا ريب ان الغيرة تسمم القلب وتجعله رديئاً قاسياً . فاذا تمكنت من المرأة ـ مهما تكن طيبة بفطرتها ـ جعلتها مغمومة حزينة وولدت فيها من مرارة الحقد والضغينة ومن الرغبة في الانتقام والاستظهار ما يملأ قلبها وحياتها

وقد تنشأ الغيرة في المرأة عن حبها لذاتها ـ حين تزدرى ولا يحفل بها . ولكنها لو لم تتأتَّ الا عن حب الذات لم تكن على ما فيها من الشدة والزخم ، كما انها لو لم تنشأ الا عن الحب لم تكن بتلك المرارة . فتركبها من هذه العناصر معاً هو الذي يظهرها لنا بذلك المظهر الشديد الاليم

الثرثرة

لقد شبه الكتاب المقدس لسان المرأة الغيورة بالسوط . على أن لثرثرة النساء ـ مع ما فيها من الفضولية والمداخلة في شؤون الناس وافشاء اسرارهم الخ . . ـ اسباباً اخرى غير الغيرة . فانها نتيجة ما استكشفناه من اخلاق المرأة فيما تقدم ـ كحبها للظهور الذي يحملها على الكلام لتلفت اليها الانظار ، ومؤانستها الفطرية التي تدفعها الى ملاطفة من حولها ، وعطفها الغريزي الذي يحبب اليها المعاشرة . اضف الى ذلك نوع معيشتها على ممر الاجيال ـ تلك المعيشة الساكنة الخالية من المشاغل الجدية والأعمال الخطيرة ، المقصورة في الغالب على مهام يدوية تشغل الاصابع والايدي وتترك المجال واسعاً للخيال وللسان . ومن الطبيعي أن تزيد رغبة النساء في استطلاع الحوادث اذا احجمنا عن اخبارهن بما يجري ، وان يعنين بالامور التافهة اذا لم نشركهن في الامور الخطيرة . ولو بحثنا بانصاف وجدنا في تلك الاسباب منشأ ما توصف به المرأة من حدة اللسان وكثرة الكلام ـ وهو ما لا سبيل الى انكاره

فان الرجل الخالي العمل لا يلبث ان يصبح نظير المرأة في الثرثرة وحب الاستطلاع ـ بل انه كذلك بطبيعته الى حد محدود ، لانه مثلها يحب الظهور والمؤانسة . ولكنه لا يعلق على الكلام تلك الاهمية التي له عندها . ولعله أميل منها الى افشاء شؤونه الخاصة تحدثاً بمآثره ، في حين انه من الجهة الاخرى أحرص منها على شؤون غيره . اما المرأة فانها أقدر على حفظ أسرارها وأميل الى افشاء اسرار الغير . ثم ان الرجال مهما احبوا الثرثرة يقفون فيها عند حدّ محدود ومهما يكن من تطلعهم الى

استكشاف الامور يندر ان يعنوا بشيء ليس له صفة عامة اوليس له علاقة ببعض الاشغال

وتكاد تجمع الآراء على ثرثرة النساء وعجزهن عن حفظ الاسرار . قال اسكندر دوماس : « ان الله لم يمنح المرأة ذقناً لانها لا تستطيع السكوت اثناء حلاقتها » وقال اراسموس : « في مضمار براعة اللسان كل سبعة رجال يعادلون امرأة واحدة » . ولا بد لنا في درس هذا الموضوع من التمييز بين شيئين : قدر الكلام ونوعه

اما القدر فان كثرته قرينة قلة التفكير في الغالب . قال فنلون : « معظم النساء يقلن اشياء قليلة في كلمات كثيرة » . على ان اندفاعهن في هذا الميدان وما يظهرنه من الفصاحة والبيان قد ينشأ عن عاطفة كريمة كالرحمة والشفقة فيسترسلن في الكلام بحماسة وكأن حماستهن تكسبهن مهارة وبلاغة . وكثيراً ما تحوم ثرثرة النساء على مواضيع لا فائدة فيها ولا ضرر

واما نوع الكلام فمرتبط بقدره ارتباطاً شديداً ، لان الكلام يقل قيمة في الغالب كلما زادت كميته . اذ لا غنى لمن يميل الى كثرة الكلام عن ايجاد مواضيع يدور عليها كلامه فيجنح مضطراً الى المسائل التافهة التي تضحك وتسلي . بل قد يلجأ الى النميمة والهذر وكشف الاستار واباحة الاسرار ، . فيتحول كلامه اذ ذاك الى رذيلة قبيحة ولا سيما اذا تمكنت فيه تلك الخصلة مع التكرار والتمرين . ولا غرابة ان يكون في النساء ضعف من هذا القبيل . على انهن ـ كما ذكرنا ـ شديدات الإحتفاظ باسرارهن الخاصة . قال لابرويير : « المرأة اقدر على حفظ سرها من قدرتها على حفظ سر غيرها » . الا انه من السهل احيانا استطلاع مكنونات قلبها من اقوالها وحركاتها

والجملة ان الثرثرة ضعف في المرأة حتى اذا لم تداخلها الرداءة والنميمة . فان لم تنل من كرامة الغير نالت من كرامتها هي . لان الكلام اذا خرج من فمنا كان حاكماً علينا

* * *

على ان الغيرة والثرثرة ليستا معدومتين من خلق الرجل . ولذا فانهما لا يحولان دون شعور المرأة باسمى ما لدى الانسانية من المشاعر . على ان نفراً من الكتاب انكروا عليها ذلك فلنفحص حججهم ونمحصها

الشرف

أما فيما يتعلق بشرف المرأة ـ وما هو الا حياؤها وحشمتها ـ فليس من ينكر

هذه العاطفة فيها . ولكن البعض ينسبونها الى اميال سفلى . منهم لاروشفوكو فقد ذهب الى ان حياء المرأة اما ان يتأتى عن خوفها من الرأي العام ـ قال : « ليس حياء المرأة في كثير من الاحيان الا حرصاً على سمعتها وراحتها » ـ او ان يكون من قبيل الغنج والدلال ـ قال : « كأن حياء المرأة زينة او خضاب تزيد به جمالها » ـ أو انه برودة فطرية في المزاج ـ قال : « لا تكون صرامة المرأة تامة الا اذا كرهت » . أما شوبنهور عدو المرأة اللدود فقد تراءى له ان بين النساء اتفاقاً سرياً من هذا القبيل غايته رفع قيمتهن وحمل الرجل على التزوج بهن . ومن ثم ـ في نظره ـ تنشأ قساوتهن ازاء من يسلمن اليه انفسهن بلا شرط ولا قيد

لا ننكر ان في هذه الاقوال شيئاً من الحقيقة ـ ولا سيما فيما يتعلق بخوف المرأة من الرأي العام . فان ذلك الرأي يحكم عليها اكثر مما يحكم على الرجل لكونها اقل منه استقلالاً ودينه عملاً بنفسها ولنفسها . فهذا العامل خطير الشأن في حياتها . قال فنلون: « الخوف اضمن حافظ لفضيلة النساء ». فينبغي اذاً ان يحسب حساب هذا الشعور وان يستخدم في صيانة المرأة من الاخطار المحدقة بها . فلئن تمكن الرجل احياناً من خلع نير العادات المألوفة والتحرر من قيود الرأي العام فليس بمستحسن من المرأة ـ في حالتها الحاضرة ـ ان تنتحي هذا النحو وتضرب عرض الحائط بما يقال وما يعمل

على انه وان يكن لهذا العامل شأن لا يستهان به فلا ينبغي ان يكون قانون المرأة وحافظها الوحيد . ولا بد لها ولنا من الاعتماد قبل كل شيء على احترامها لنفسها وحرصها على كرامتها

الواجب

ولندرس الان اسمى عاطفة في الانسان ـ عاطفة الواجب . فما شأنها في حياة المرأة ؟ ان المتداول من الآراء في هذا الشأن يُلخص في قولنا ان تلك العاطفة في ذاتها باردة ناشفة وانه ليس لها من الحرارة والجاذبية ما يستهوي قلب المرأة . على أن هذا الحكم لا يصح الا اذا صح أن احساس الواجب صورة ذهنية مجردة من كل رهجة وبهاء . ولكن الله له الحمد لم يفصل بين العقل والقلب : فعاطفة الواجب ترتكز عليهما معاً اذ لا بد من معرفة الواجب ومن محبته ايضاً . ومع ذلك لا يسعنا

الا التسليم بن القسط الذي للقلب أزيد في المرأة منه في الرجل وان الواجب لا يتضح لها جلياً الا إذا مس قلبها . فقد يتعذر عليها القيام به ما لم يطرق ذلك الباب . بل قد تقضي عنه اذا صدم عواطفها . اما اذا وافق هوى من قلبها فسرعان ما تلبيه وشتان اذ ذاك بينها وبين الرجل ! وبعبارة أخرى حين يقضي الواجب بالعدل والانصاف نجد الرجل اقدر من المرأة على القيام به ولكنه حين يستدعي انكار الذات والتضحية بالنفس نجدها متفوقة عليه اذ تستسهل تأدية ما يفرض عليها بل تستلذه وتتعشقه

ولست اقصد من ذلك ان الاحسان فضيلتها الخاصة وان العدل فضيلة الرجل وحده . فعلى كل من الرجل والمرأة ان يتحلى بهاتين الفضيلتين . وانما نستخلص مما تقدم ان في المرأة اهلية للوغ اسمى مراتب الرقي المعنوي ولا سيما متى قضى الواجب بارغام النفس واذلالها

ولنبين الآن المميزات الخاصة بالمرأة من هذا القبيل حتى نقارن بينها وبين الرجل. فما هو اساس سلوكها ؟ وما هي مقومات سيرتها ؟

سلوك المرأة

قال لابرويير : « ليس للمرأة مبادئ تعمل بموجبها . فانها لا تسترشد الا قلبها ولا تستهدي الا بوحي الذين تحبهم ». ان هذا الحكم صارم في ظاهره ولكنه في الحقيقة انما يعني ان المرأة اقل تأملاً من الرجل في اختيار المسلك الذي تسلكه ، وهو امرٌ لا ريب في صحته لانها تعودت أن تكون مقودة لا ان تقود نفسها ولان ما فيها من فضيلة يصدر في الغالب عن غريزتها وفطرتها لا عن عقلها وحكمتها — حتى لقد قال احدهم : « لا تفكر المرأة في اصول الواجب الا حين تريد ان تتحرر من سلطانه او حين تلتمس مبرراً لانتهاك حرمته »

فنرى من ذلك ان الفرق بين الجنسين في هذا الشأن هو فرق في التربية والتهذيب وليس فرقاً أساسياً يلحق سجاياهما الفطرية . على ان مسافة الخلف بينهما قد بعدت مع مرور الزمن حتى أصبح لسلوك كل منهما صورة خاصة تختلف عن صورة الآخر : فسلوك المرأة غريزي في معظم الاحيان وقلما يستند الى قضية عقلية

أو قاعدة منطقية . قال توماس : « يندر ان تحكم المرأة بلا تحيز ـ كما يحكم القانون ـ فانها لا تصدر حكمها الا بعد ان تتبين الشخص المطلوب للمحاكمة » . والجملة ان عواطف المرأة تحول فيها دون صدق النظر وصحة الحكم . وهـذا أمر يتوقعه كل من درس حالتها في العصور السالفة وما كان من خضوعها للرجل وسعيها المتواصل لنيل الحظوة في عينيه ـ وهو ما أفقدها شخصيتها وجعلها عاجزة عن ادراك معنى الحرية الحقيقية والمنفعة العموميـة ونحو ذلك من المدركات الذهنية التي تمكنت من نفس الرجل . فسلوك المرأة موقوف على ما يتراءى لها أو ما يتراءى لقلبها . فقد تؤثر المسلك الجذاب على المسلك الحق « لان الكياسة عندها مقدمة على الصواب » كما قال ميشله . بل ان عاطفة الامومة تفسها كثيراً ما تحيد عن جادة العدل والانصاف فتفضل الام ولداً من أولادها على سائر اخوته . وهي في الغالب تميز أضعفهم ـ كأن الطبيعة تقوي فيها الشعور الامي أزاء أحوج أولادها الى عنايتها (أسـوة بسائر الحيوانات فانك لا تجد فيها رابطة وثيقة تربط الام باولادها الا في دور الارضاع)

أما فيما يخص الحياة الاجتماعيـة فترى المرأة غالباً شديدة التمسك بالاصطلاحات والعادات المألوفة . وقلما تستطيع التنزل عنها بل قلما تميز بين ما هو معمول به وما يجب ان يكون معمولاً به . وفي تمسكها هذا دليل على استعدادها الفطري للقيام بالواجب أو بما تظنه واجباً ، كما انه دليل على افتقارها الى تعديل ادراكها لماهية ذلك الواجب

ومن الصفات النادرة بين النساء الاستقامة ـ أي توافق القول والعمـل . فتراهن في الغالب كثيرات المواربة والمداجاة ، ولا سيما متى شئن التخلص من فرض غير مستحب اليهن . قال ديدرو : « كأنهن يعملن بمذهب ماكيافلي (وهو المذهب القائل بان الغاية تبرر الواسطة) فحيث يحول دون اقدام الرجل حاجز منيع لا ترى المرأة الا نسيجاً عنكبوتياً » . وقال فنلون نحو ذلك اذ بيّـن تصنع المرأة وقدرتها على الاختلاق والمداهنة وموهبتها العجيبة التي تسهل عليها تمثيل الدور الذي تود تمثيـله . على اننا قد رأينا سبب ذلك وعلمنا انه ناشىء عن حالة المرأة التاريخيـة وضعفها الطبيعي . قال روسو : « المـكر موهبة الجنس الضعيف وكأنه به يستعيض من ضعفه وقصوره » . وهو أيضاً نتيجة ما تحملته المرأة من الحجر والحبس على ممر الاجيال . الا اننا نجد ـ حتى بين المستنيرات المستقلات بالرأي ـ ميلاً الى الغش والخدع وتدبير الحيل والمكايد . وقد

قال أحدهم ان من كل عشر رسالات ترسل بلا امضاء بقصد النميمة والايقاع تجد ثمانياً أو تسعاً من النساء . الا اننا لا ندري مبلغ هذا القول من الصحة فليس من السهل عمل احصاء في هذا الشأن . وعلى كل حال فواجب التربية واضح جلي من هذا القبيل

غريزة الحق

وما عسى ان نقول عن تلك الغريزة السامية القريبة من غريزة الواجب ـ نعني غريزة الحق ؟ كثيراً ما تكون تلك الغريزة ضعيفة في النساء فالواجب على التربية ان تقويها لسببين : أولاً لجمالها في حد ذاتها وثانياً لانها خير حافظ لشرف المرأة وافضل معين لها على القيام بفروضها . فان الكذب يمهد الطريق لسائر الرذائل

ولا يسعنا انكار ما تتهم به النساء من هذا القبيل انكاراً باتاً . قال لابرويير : « من السهل على المرأة ان تقول ما لا تحسه . » ورأى كنت الفيلسوف الالماني أنه ينبغي للآباء ان يسهروا على اولادهم كي تثبت فيهم سجية الصدق . لان الامهات قلما يكترثن لها . وقد كان من اشتهار النساء بالكذب في القرون الوسطى انهن منعن عن تأدية الشهادة امام القضاء . ولعل آثار ذلك التحذر باقية الى اليوم في منع المرأة عن القيام ببعض الاعمال القانونية

وخليق بنا الآن أن نفحص هذه التهمة عن كثب بعد طرح كل تأثير مكتسب من الوراثة والبيئة . فهل حقيقٌ ان المرأة دون الرجل من هذا القبيل ؟ لا بد انا من التسليم بعجزها عن ادراك بعض الحقائق ولا سيما اذا كان لها مساس بمصلحتها . وقد خبرت ذلك بنفسي فيما يتعلق باباحة الطلاق . فان النساء اللواتي حدثتهن عن هذا الموضوع اظهرن على العموم اشمئزازاً عظيماً كأنهن عددن اباحة الطلاق تهديداً لهن في سعادتهن . ولم اجد واحدة بينهن خاضت هذا المبحث بروية واعتدال . وعبثاً حاولت اقناعهن بان مبدأ الطلاق ـ وان يكن قبيحاً مرذولاً من الوجهة الاخلاقية ـ الا انه ضروري للهيئة الاجتماعية في بعض الاحوال الاستثنائية . وقد حدث لسيدة من هؤلاء السيدات ـ وكانت اشدهن مقاومة لاباحة الطلاق ـ ان ابنتها وقعت في حالة اضطرتها الى طلب الطلاق فادركت الام اذ ذاك ما لم تكن لتدركه لو لا ان خبرت بنفسها ذلك الموقف الحرج

على اننا اذا فحصنا قلوب الرجال هل نجدها يا ترى اقرب من قلوب النساء الى الحقيقة والصدق او على الاقل هل نجد بين الجبلتين فرقاً جديراً بالذكر . هذا ما اشك فيه وفي الغالب ان كذب المرأة اقل ضرراً من كذب الرجل . على ان ذلك لا يمنعنا من التحوط لهذه الرذيلة في المرأة ولا سيما انها مكتسبة من البيئة والتربية كما ذكرنا وهذا ما يجعل اقتلاعها سهلاً . وقد تقدمت نساء كثيرات في هـذا المضمار . ولا بد لي من الاعتراف في هذا المقام بان اصدق شخص أعرفه وابعد الناس في علمي عن المداهنة والمداجاة ليس رجلاً بل امرأة

احساس الجمال

لا ريب في ان هذا الاحساس مغروس في فطرة المرأة ـ بل لعله اعم بين النساء واعظم شأناً في حياتهن . فالمرأة تؤثر الحسن الجميل عادةً على النافع المفيد . ومهما يكن الامر فلا اقل من التسليم لها بأنها تقضي جانباً كبيراً من يومها وهي تفكر فيما يجعلها حسنة جميلة . ولذا فقد قال كَنْت انه يحق للنساء أن يطلق عليهن اسم « الجنس الجميل »

على ان هذا الاحساس قلما يكون فيهن قرين الابتكار والابتداع بل تجده في معظم الاحيان خاضعاً « للمودة » والعادات المألوفة والاصطلاحات الجارية ـ حتى لقد قال شامفور ان المرأة لا تحب الرجل الا بعد ان تقف على ما يراه فيه الناس لا ما تراه هي فيه . ولئن كان في هذا القول شيء من الهزؤ فالحقيقة هي ان المرأة قلما تخرج عن الآراء المتعارفة في تصورها للجمال والجميل . وقد تفضل الظرف والرشاقة على الجمال السامي اذا لم يكن مألوفاً ، كما انها في كتب الادب تفضل الخفيف اللطيف على الجدي العويص . وهي تلميذة بارعة سهلة التدريب في الفنون الجميلة ولكن يندر ان تسمو فيها الى مرتبة الابداع ، كما يندر أن تهجر الاساليب المألوفة والسبل المطروقة . بل انها ـ حتى في فنون الزينة والالباس ـ دون الرجل ابتكاراً واستنباطاً

وقلما تفصل المرأة بين ما هو حسن في ذاته وما هو مستحسن عند الناس . فقد تتعامى عما في رجل من الادب الصحيح والخلق المتين اذا لم يكن انيقاً في سلوكه ظريفاً في حديثه رشيقاً في حركاته . ولقد عرفت سيدة نقمت نقماً شديداً على رجل وامرأته ـ وهما من خيرة الناس وأسلمهم خلقاً ـ لانهما دخلا صالونها ويدها مشبوكة في يده وهو ما عدته السيدة جرماً فظيعاً وزلة لا تغتفر

أما من حيث الانتاج الفني فقد اصبح للنساء قسط لا يستهان به من الآثار الفنية المختلفة . على ان ذلك القسط أقل من قسط الرجل بكثير . ولعل السبب الاكبر في ذلك هو تفاوتهما في التربية الفنية فان ابواب تلك التربية لا تزال ضيقة في وجه النساء ولم يتح لهن دخولها الا منذ زمن قريب . وما دامت الفرصة غير متساوية للجهتين فمعرفة الفرق الذي يفصلهما من هذا القبيل متعذرة

ولكن مما لا ريب فيه ان النساء أخذن يقتفين آثار الرجال في مضمار الفنون . وقد برع منهن غير واحدة في التصوير الا انهن في الغالب لا يبدعن الا في ضروب التصوير الخفيف كتصوير الطبيعة والزهور والتصوير بالماء والتصوير الدقيق المسمى منياتور (miniature) . ثم انهن يُجدن في الجزئيات والتفاصيل على الغالب اكثر من اجادتهن في تأدية منظر عمومي وصورة اجمالية . فكأن براعتهن تمتاز بالرشاقة لا بالقوة هذا حكم شامل يصح تطبيقه على جميع الفنون الجميلة — وان يكن له بعض الشواذ وانه صحيح أيضاً فيما يخص الآثار الادبية . فالاليادة والاوذيسة وهملت ونحوها ليست من مآثر النساء ، كما ان الصور والتماثيل الشهيرة في العالم ليست من صنعهن

والذي نستخلصه من كل ذلك ان البراعة الفنية في المرأة ضيقة المجال قصيرة المدى . ولكن ذلك لا يحول دون صقلها وتهذيبها . ولعلها بالصقل والتهذيب تسمو الى المرتبة التي بلغها الرجل

الشعور الديني

أما فيما يخص الشعور الديني فقد أجمع الناس على بروزه فيها وتملكه من قلبها . ولكن شعورها هذا يحفل بالمحسوسات اكثر من حفله بالمعنويات . بل قد تتمسك المرأة بصور ورسوم ليست من روح الدين في شيء . وانما اخلاصها وصدق نيتها يغتفران لها تطرفها من هذا القبيل — وانه لجدير بنا ان نحترم كل ما كان فيه سلوى وتعزية للقلب البشري . فالدين ملجأ المرأة الامين الذي تجنح اليه ساعة الضيق بما فيها من ضعف وخوف وقلق

والمرأة في الغالب تتقبل قضايا الايمان من غير شك أو تردد بل تتعلق فيها بكل جوارحها مدفوعة بغريزة البقاء . اما الرجل فان ايمانه كثيرا ما يفتر بما يمازجه من

التفكر والتأمل والتفلسف . قال رينان : « تقاوم النساء على الدوام كل تمحيص وانتقاد في المسائل الدينية . فانهن لا يصدقننا في هذا الشأن مهما نقل ونتبجح . وهذا ما يجب ان نسرّ له : . . . »

ان هذا الشعور ذو شأن خطير في حياة المرأة . بل انه قوة عظيمة ينبغي تطهيرها وتخليصها من الشوائب التي تخالطها ، حتى يتيسر استخدامها لفائدة المرأة ولفائدة الجمعية البشرية . والمرأة متدينة بفطرتها ولا بد لها من التمسك بإيمان مهما يكن نوعه ، بل انها عندما تحب تعد حبيبها بمنزلة دين لها فيمازج حبها شيء من الورع والتعبد . وان لمن المحال اقتلاع هذه الغريزة من قلبها . فترى من ذلك ان التربية الدينية ضرورية للبنات على الخصوص . وليس أسعد في العالم من القلب المؤمن المتيقن من غرض يسعى اليه في غير هذا العالم

الفصل التاسع

ذكاء المرأة

المرأة بطبيعتها شديدة الذكاء . وقد ذكرنا قول احدى الكاتبات الفرنسيات ان أندر ما في فرنسا امرأة غشيمة . على ان المرأة بوجه الاجمال ذكية في كل مكان وليس في فرنسا فقط . فاننا اذا جردنا الرجل من التفوق الذي اكتسبه بتربيته جاز لنا القول بان المرأة ليست دونه في القدرة العقلية باعتبار نوع معيشتها وما لها من الحاجات الخاصة بها . بل قد يجوز القول بانها تفوقه في تدبير الامور المألوفة التي تمسها معاً

ففي طبقات العامة ولا سيما بين أهل المزارع والحقول كثيراً ما تكون المرأة وحدها ربة الدار ومديرة المنزل (وان لم تظهر بهذا المظهر تحاشياً لخدش احساس زوجها) . فانها أحذق من الرجل في الغالب وأبرع منه واكثر توفيراً وترتيباً . وهي أيضاً أشد منه اهتماماً بالغد وتحوطاً له ، كما انها اكثر عناية بمستقبل أولادها . واذا ألمّ بالدار مكروه عرفت كيف تخفف وطأته . ثم انها أمهر من الرجل في التخلص من المشاكل التي تعرض لها ولذويها

سلْ طبيباً من اطباء الريف عمن اقدر على افادته عند ما يستفهم عن حالة عليل . فكثيراً ما يعجز الرجل عن تقديم البيان المطلوب فيلجأ الطبيب الى المرأة فتعلمه بما يريد ـ حتى اذا كان المريضُ زوجها نفسه . الا انها تسترسل احياناً في بيانها وايضاحها فتقول غير المطلوب . ولكن الطبيب اذا كان ماهراً عرف كيف يستخلص المفيد من غير المفيد

أما في الطبقات المتوسطة ولا سيما بين اهل المدن المعتدلي الحال (bourgeois) فالرجل صاحب التفوق العقلي في الغالب . ولكن ذلك التفوق انما يرجع الى تهذيبه وتثقيفه وقلما يتعدى حرفته او مهنته . فكثيرون هم الرجال الذين يصح فيهم قول أحدهم عن بعض العلماء : « انه يتعثر حالما يخرج من مكتبه »

وأما الطبقات العالية فكثيراً ما تتفوق فيها المرأة وتبدي من البراعة والذكاء

ما يقصر عنه الرجل ولا سيما انه في معظم الأحيان ينهمك بالملذات الحسية والالعاب والملاهي وغير ذلك

على أن ما ذكرناه في تقدم من ذكاء المرأة انما يراد به الذكاء بمعناه العام ، أي القدرة على فهم الحوادث والاشياء التي تعرض للانسان في كل يوم . اما الذكاء بحصر المعنى فيفيد اكثر من ذلك اذ يشمل موهبة التأمل بوساعة ودقة ، والتفكير بنظام وترتيب ، وقوة النقد والتمحيص لما هو متداول من الحقائق ، والتدرج الى الاحاطة بالمدركات البشرية السامية . فهل في المرأة كفاءة لكل ذلك ؟ هذا ما نود الاجابة عنه الآن . على انه يجدر بنا قبل ذلك أن نتبين ذكاءها العمومي وان نقف على مميزاته بشيء من التدقيق

مميزات ذكاء المرأة

يجوز أن يوصف ذكاء المرأة على العموم بكونه « وثاباً » . فانه قليل التأمل سريع الوصول الى النتائج . قالت سيدة تصف ذكاء جنسها : « قلما نلقن ما نعلمه بل اننا نحزره حزراً » ـ وهو قول يحوي حقيقتين معاً : فذكاء المرأة اولاً اشبه بالتكهن والتنبؤ . ولعله كذلك ثانياً لان المرأة لم تلقن ما لديها من المعلومات ، بل كأن قلة التعليم اذكت فيها ذلك الاقتدار الغريزي لاحتياجها اليه . وقد يكون هذا الاقتدار ايضاً نتيجة لين المرأة الفطري ومرونتها الطبيعية : فانها مدفوعة بحكم حالتها الى استكشاف الاحساسات واستبانة الخواطر من نظرة او لمحة او اشارة . قال احدهم : « لدى المرأة فطنة بديهية وحذاقة فطرية تقتدحان النتائج بسرعة ويقين معاً وذلك ناشئ عن اضطرارها المستديم الى ملاحظة الرجل ومراقبة نظيراتها » وقال روسو : « الرجل يسبق المرأة في التفلسف على القلب البشري ولكنها أحذق منه في استبانة ما تكنه قلوب الرجال : فالمرأة تلاحظ والرجل يتفلسف »

وبعبارة أخرى كأن في المرأة « نوراً طبيعياً » يضيء كل ما يعرض أمامها من الحوادث والمشاكل فيعينها في الحال على استجلاء غوامضها . فبينا يكون الرجل مستغرقاً في فحص احدى المسائل تتوصل المرأة في لمحة بصر الى النتيجة المطلوبة

على ان هذه القدرة العجيبة انما تصدر عن القلب . قال بول بورجه : « يمكن ادخال أي شيء الى عقل المرأة عن طريق عواطفها » . وفي هذا القول حقيقة جديرة بالتأمل

والاعتبار. فلا ريب في ان قلب المرأة يزيدها فطنةً ونباهة ـ وقد قيل ان للقلب احكاماً غير احكام العقل كما ان له قياساً غير القياس العقلي المعروف . قال لامارتين : « ان الله وضع عبقرية المرأة في قلبها » فمنه تصدر براعتها وصدق نظرها وقوة حجتها . ولله در فولتير القائل : « ان كل فلسفة الرجال لا تعادل عاطفة واحدة من عواطف المرأة » فحرارة العاطفة تتخلل أقوالها وأعمالها جميعاً

نقص ذكاء المرأة

ولكن تلك الحرارة ـ التي هي مرجع ما في النساء من البراعة والسلطان والقدرة على اقناع الرجل واستمالته ـ قد تشوب ما بين من العقل والفطنة والذكاء . فان العاطفة بطبيعتها تحول دون صفاء الذهن وانصافه اذ تدفع العقل الى الحكم من غير تأمل وتمحيص . قالت مدام نكردى سوسور : « لا يحكم العقل بالعدل الا في حالة الهدوء . أما اذا كان مضطرباً فحكمه يخرج مشوشاً » . والنساء ـ كما لا يخفى ـ يندر ان يكن هادئات ساكنات ولا سيما في سن الشباب . وهذا ما يحملنا على التريّث في ما يصدرنه من الاحكام على ما يحببنه وما لا يحببنه . فلا بد من رزانة العقل ومتانة الخلق للتسلط على الاهواء والعواطف . وانه لمن الصعب على أصحاب النفوس الحساسة ان يلازموا طريق العدل والصواب ولا يحيدوا عنه . قالت الكاتبة المعروفة باسم جورج اليوت : « . . . هكذا يكون أصحاب الطبائع الحساسة . فليست أفكارهم الا اظلالاً لعواطفهم » . وحاصل القول ان الذي ينتقص ذكاء النساء على العموم انما هو الركون الى « الواقع » والاعتماد عليه

وبقطع النظر عما للعواطف من التأثير في احكام المرأة تجد فيها عوامل أخرى تحول دون اصابة الرأي وصدق النظر . فمن ذلك انها كثيرة الملاحظة للدقائق والجزئيات ، وهذا ما يجعل من الصعب عليها أن تدرك الاشياء بمجملها . فقد قيل عنها « أن تميزها للمنازل يحجب عنها منظر المدينة كما ان مشهد الاشجار يحول دون تصورها للغابة » . فلئن تيسر لها احياناً ان تدرك في لحظة ما يتعذر على الرجل ان يميزه او مايبذل زمناً طويلاً في تميزه فذلك انما يكون بوحي الغريزة ومن غير تأمل وتمحيص . فكأن فطنتها قصيرة المدى قليلة العمق . وبعبارة أخرى انها سريعة الفهم اكثر مما هي جيدته . ولذا يجوز

لنا في الغالب أن نصف ذكاءها بكونه سطحياً . قال شوبنهور : « المرأة مصابة بقصر نظر ذهني وهو ما يجعلها جيدة التمييز للامور القريبة فقط ، في حين أن مدى بصرها محدود لا يتناول ما يجاوز بعداً معلوماً »

لاريب في أن هذه الاوصاف ـ حسنها وسيئها ـ منطبقة على الذكاء النسائي . فقد اتفق الملاحظون جميعاً في هذا الشأن . ولا يخفى ان الفضائل والنقائص مترابطة على الدوام أي ان ما يعد فضيلة ممدوحة من جهة قد يكون نقيصة مذمومة من جهة أخرى. فكأن لهذه المسئلة وجهين . على ان الاختلاف الاساسي بين الملاحظين هو ان بعضهم استرسل في بيان الوجه الممدوح ، في حين أن البعض الآخر توسع في الوجه المذموم . وفي الواقع ان الوجه الواحد يبرز تارة في خلق المرأة وتارة يبرز الوجه الآخر . قالت مدام دي ريموزا : « ينقصنا نحن معشر النساء ترابط الفكر وتماسك اطرافه عند ما نخوض المسائل العامة ـ وان نكن سريعات الادراك بما منحناه من حدة الذكاء حتى لقد نميز ما يميزه الرجال بل قد نفوقهم تمييزاً ـ ولكننا شديدات التأثر والانفعال . وهذا ما يبعدنا عن الانصاف وصدق النظر ومتانة الحكم ومن الصعب علينا ان نتأمل طويلاً في موضوع من المواضيع . . . » . وقالت مدام دي لامبير نحو ذلك وهو قولها : « ان قدرة العقل على الفحص والعفة التأمل ناقصة في المرأة لان العاطفة المسيطرة عليها تلهيها وتستهويها . . . كأن الافكار تأتيها جاهزة فتترتب في ذهنها وتنتظم فيه بوحي الغريزة لا بالتأمل . . . » . وقالت اخرى : « تنقصنا قوة العقل التي تجتاز القشور الى الاصول »

كل هذه الاقوال تعلل لنا ما اشتهرت به المرأة من الطيش والتنقل والخفة العقلية ـ حتى ان أقدر النساء وأعقلهن لم يسلمن من هذا النقص . حدث غوته الشاعر الالماني عن مدام دي ستال الاديبة الفرنسية انها زارته يوماً (وكانت تتردد عليه أثناء مكوثها في المانيا منفية من فرنسا) وأخبرته حال وصولها ان نابوليون ـ وكانت تسميه الطاغية ـ القى القبض على القائد مورو و بعض رفاقه بتهمة الخيانة . قال : « وكنت ـ أسوة بغيري من الناس ـ أهتم لامر ذلك الشخص السامي الخلق (أي مورو) فمكثت أفكر في ما مضى من الحوادث لاستخرج منه نتيجة أو حكماً . . . ولكنها لم تلبث ان هجرت هذا الموضوع وأخذت تتحدث عن أمور تافهة لا شأن لها . أما أنا فكنت مستغرقاً في

تأملاتي ولم يحضرني ما أجيب به على حديثها فغضبت لذلك ولامتني على ما طالما شكت منه فيَّ وهو اني «عابس كعادتي ولا تمكن محادثتي بحبور وانشراح» ولكني لم أصبر على قولها هـذا فقلت لها: «حقاً انك لا تستطيعين ان تعني بشيء عناية جدة. فقد بادرتني بصدمـة شديدة وتريدين مع ذلك ان أجاريك في رغباتك المتغيرة وان أتنقل معك على الدوام من موضوع الى آخر؟» اه. ان هـذه القصة ذات مغزى لبحثنا ولا سيما ان مدام دي ستال لم تكن بين النساء دون غوته بين الرجال بل انها من أندر بنات جنسها فطنة وعقلاً

على اني مع كل ذلك لا أسترجع شيئاً مما قلته عن المرأة آنفاً. فانها لا تقل ذكاء عن الرجل وان اختلفت مظاهر ذكائها كما رأينا. وقد آن لنا ان نحلل هذا الذكاء الى عناصره التي يتألف منها مقابلين في كل ذلك مواهب الرجل بمواهب المرأة

الادراك

ان قوة الادراك بمعناها الفلسفي المحصور ـ وهي القوة العقلية التي تبين لنا المبادئ الاساسية البديهية (كمبدإ السببية اي انه لابد لكل حدث من سبب، ومبدأ المناقضة اي انه يستحيل اجتماع صفتين متناقضتين في الشيء الواحد) ـ مشتركة على السواء بين الجنسين. وهي لازمة للعقل البشري اصيلة فيه ولا فرق في ذلك بين الرجال والنساء. ولولا هذه الوحدة لاستحال تفاهم البشر وتوافقهم المعنوي

فما الذي ينقص المرأة اذاً؟

ليس ما ينقصها دقة الحواس. فكل ما كتب في هذا الشأن لا يؤدي الى نتيجة مفيدة. وهب اننا جارينا القائلين بخشونة حاستي الشم والذوق فيها ـ وهو ما لم يثبت بعد ـ فانهـا ليست دون الرجل في الحواس الاخرى لا في دقة اللمس والسمع ولا في حدة البصر. ولا ريب في ان هذه الحواس الاخيرة اعظم شأناً من الحاستين الاوليين فانها تجلب للعقل من المعلومات اكثر مما تجلبان له. ومهما يكن الامر فان القوة العقلية لا تقاس بدقة الحواس وخشونتها. فقلما يكون للحواس تأثير فيها. فلم يكن ارسطو ونيوتن وديكارت على ما نعلم اصحاب حواس ممتازة

الذاكرة

أما فيما يخص الذاكرة فقد اجمع الملاحظون على بروز هـذه الموهبة في المرأة ولعل البعض منهم لم يمنحوها حقها هذا الا ليتيسر لهم انكار مواهبها الاخرى . وهناك من الحوادث والشواهد ما يثبت تفوق الذاكرة في النساء :

لقد دلت الامتحانات العمومية على ان الفتيات يحرزن قصب السبق في كل ما يتطلب الحفظ . بل حتى في المواضيع التي ليس للحافظة فيها شأن عظيم تجدهن ميالات الى اعادة ما يطالعنه او ما يسمعنه حرفياً . وسبب ذلك هو انهن لا يعتمدن على انفسهن بل يؤثرن الاعتماد على ما يتلقنّه من الجمل . وقد طلب مرة من التلميذات المتقدمات لامتحان مدرسة المعلمات في فرنسا أن يجبن على السؤال الآتي : « هل تشعرين بميل خاص الى موضوع من مواضيع الدراسة ؟ » فكان اختيار أربع تلميذات من كل خمس لموضوع التاريخ . وفي التاريخ نفسه تجدهن ماهرات متى طلب اليهن سرد الوقائع وقد يصعب عليهن بيان الاسباب والنتائج والمقارنة بين الحوادث

وفي ذلك ما يعلل لنا ايضاً لينهن وطواعيتهن ونحو ذلك من الصفات التي اجمع المعلمون على امتداحها في الشابات . على اني اعرف استاذاً ما برح يشكو من ذلك لانه لم يتمكن – رغم سعيه المتواصل – من حمل تلميذاته على تسميع الدروس بصورة غير التي اوردها هو او التي اوردّها الكتاب . وما سبب ذلك الا انطباع تلك الصورة في حافظتهن . ومن السهل على الاستاذ المحبوبْ أن يقنع تلميذاته بكل ما يريد اقناعهن به. على ان الضرر عظيم من الاعتماد على الذاكرة وحدها واهمال القوى العقلية الاخرى

ولا يؤخذ مما تقدم ان هذا النقص خاص بمعشر النساء فالله در الشاعر غوته القائل : « ما اندر الاصوات في هذا العالم وما اكثر الاصداء ! » وانه لحقيق بكثير من الرجال ان يقولوا مثل ما قالته مدام دي سيفينيه عن نفسها وهو قولها: « أما أنا فلكوني مخلوقة انيسة اليفة – كما تعهدينني – فانني اكتفي على الدوام بترديد الرأي الاخير الذي أسمعه » . وهذا هو السبب الذي يجعل الآراء الشخصية نادرة بين النساء . فانما آراؤهن في الغالب آراء البيئة التي يعشن فيها . وهو أيضاً سبب ميلهن الى المحافظة على القديم المألوف في كل موضوع

الابتكار

فمن ذلك نرى ان الميزة التي سلم بها ملاحظو المرأة تعود من جهة أخرى فتنقلب عليهـا وتحول دون نموها العقلي . فقد أنكروا عليها جميعاً قوة الابتداع والابتكار . ولخص هذه التهمة الاستاذ كرل فوجت السويسري في مقالة جاء فيها انه لا يؤاخذ تلميذاته بالكسل فانهن ـ بعكس ذلك ـ « مثال الانتباه والاجتهاد » فضلاً عن مواظبتهن على حضور الدروس وتدوين المذكرات . وانما الذي ينتقده عليهن هو تلك الطواعية العمياء . قال : « ... يدلني اختباري على ان الشابات يفقن الشبان عموماً في الامتحانات . ولو لم تخرج الاسئلة عمـا قيل في الصف أو ورد في الكتاب لكانت نتيجتهن باهرة على الدوام . ولكنهن قد يعجزن عن الجواب اذا أتاهن السؤال موارباً فيتلعثمن حالما يستدعي الامر تفكيراً شخصياً » . ونتيجة بحث الدكتور فوجت هو ان المرأة قادرة على تخزين المحفوظات ولكنها قاصرة فيما يخص ابتكار العقل واختراعه

على ان أحد زملاء الدكتور فوجت خالف رأيه (في مقالة نشرت بعـد تلك المقالة) فقال : « يندر ان تجد ذاتية بارزة في التلاميذ عموماً سواء في ذلك الشبان والشابات » . ولما كانت هذه المسألة ذات شأن خطير يجدر بنا ان ندقق في درسها . ولكي تسهل علينا تلك المهمة ينبغي لنا الابتداء بدرس المواهب الاخرى المرتبطة بهذا الموضوع كالخيال وحب الاستطلاع والكفاءة للبحث العلمي

الخيال

للنساء على الاجمـال خيال قوي يحملهن على المبالغة في كل شيء ـ في متاعبهن وهمومهن ومخاوفهن وآمالهن الخ . وان لمن الصعب عليهن ان يرين الاشياء كما هي في الواقع من غير تعظيمها على صورة من الصور

وقد أجمع الملاحظون على عد الخيال من مميزات المرأة البارزة فيها ـ وهو ما يجعلها متنقلة مضطربة على الدوام . قالت مدام دي لامبير : « لما كانت الاعمال الجدية محرمة على النساء فقد برزت فيهن قوة الخيال كأنها تعيضهن من سائر المواهب الاخرى . فهي تعظم في المرأة ما يطرأ عليها من لذة وألم عشرة أضعاف قدره ـ هـذا اذا لم

تخلقه من أوله الى آخره . . . ولا أنكر ان هذه الموهبة ـ اذا عُدّلت وكبحت ـ آلت الى انقاص احساس اللذة لانها تحلي الاشياء بسربال من الجمال والبهاء (وان يكن وهمياً) . ولكن ما اكثر الآلام التي تحدثها لنا أيضاً ! انها تحول دائماً بينك وبين الحقيقة فلا اثر للعقل حيث يسود الخيال . وحبذا اتفاق مع هذه القوة يعيد اليها لذاتها مقابل ابطال الآلام التي تأتينا بها . فليس من حائل دون السعادة أعظم من الخيال الملتهب الحساس »

أجل ان سلطة الخيال على المرأة عظيمة ـ ليس على أحكامها فقط بل على ارادتها أيضاً . ثم ان الخيال يشت ويتسع مجاله في حالة الضعف الجسماني والانحطاط العصبي . فلا بد من تعديل هذا الميل الفطري في المرأة . ولا معدل له أفضل من سلامة الذوق وتوازن التربية . ولولا هذا المعدّل لظل الخيال منشأ الاوهام والاخطاء على انواعها . وهو ما تقع فيه المرأة كثيراً

على ان الخيال ليس مقصوراً على هذا النوع الاسفل الذي يكتفي بتضخيم ما يعرض للعقل من الحوادث والاشياء . فان هناك خيالاً أسمى منه وهو الخيال « المبدع » الذي عليه قوام النبوغ والعبقرية . فهذا الخيال لا يقتصر على تهيئة الصور وتعظيمها بل يوفق بينها ويدمجها بعضها في بعض ويستخرج منها صوراً جديدة . هذا هو سر الاختراع والابتكار . ولا جدال في ان المرأة متخلفة في هذا المضمار . فقليلة الاختراعات المسجلة باسماء النساء . ورغم انصرافهن الى الفنون الموسيقية لم يبرز بينهن مؤلفة عظيمة . كذلك يندر ان تجد بينهن شاعرة فحلة .

ولكني أعتقد ان القسط الاعظم من هذا القصور راجع الى تاريخ المرأة وتربيتها الماضية . فان من يتتبع تقدم النساء في السنوات الاخيرة ـ أي بعد ان فتحت لهن أبواب السعي والعمل ـ يجد بينهن غير واحدة ممن نبغن في الفنون الجميلة على اختلاف انواعها . وهو ما يبشرنا بمستقبل زاهر للمرأة من هذا القبيل . فلنمتنع عن التضييق على الطبيعة البشرية فان فيها قوى كامنة تتفجر أحياناً ببرخم لا يتوقعه أبصر الحكماء . واي قصة أعجب من قصة جان دارك تلك الراعية الامية التي توصلت وهي في العشرين من عمرها الى قيادة جيش عظيم بمهارة فائقة ! . .

حب الاستطلاع

ان رغبة الاستطلاع مبدأ كل علم . فحين يدهش الانسان مما يراه حوله وحين يشعر بدافع يدفعه الى المعرفة والتعليل اذ ذاك تنمو فيه جرثومة العلم . فهل هذه الموهبة من مواهب المرأة ؟

لا ينكر اولاً انها نادرة بين الرجال . ولكنها بلا ريب أندر بين النساء . هذا اذا عنينا بحب الاستطلاع ذلك الدافع الداخلي الذي يدفع صاحبه الى استكشاف الخفايا واستجلاء الغوامض والذي يحثه على استخراج الحقيقة من مكامنها في الطبيعة والاجتماع . فهذا هو الدافع الذي يكوّن العلماء والمخترعين . أما حب الاستطلاع الذي يحوم حول الامور التافهة والاحاديث المتناقلة ونحو ذلك فانه أظهر في النساء بوجه الاجمال كما ذكرنا . على أن هذين النوعين — وأن يكونا مظهرين لغريزة فطرية واحدة — فقد اصبحا متناقضين ومن المحال اجتماعهما في شخص واحد : فالنوع الاسمى يطرد الادنى والادنى يطرد الاسمى

ويؤخذ من تراجم مشاهير العلماء أن غريزة الاستطلاع تبرز فيهم منذ حداثتهم . فقد كان لي رفيق في المدرسة اطلع يوماً على قائمة أحرف هيروغليفية فاخذ على نفسه من ذلك الحين — بلا أقل حض او تشجيع ، بل من غير اطلاع أحد على نواياه — أن يدرس تلك اللغة . فكان كلما اجتمع لديه قليل من الدراهم قصد بائعي الكتب القديمة ليشتري منهم ما له علاقة بلغة مصر وتاريخها . وظل على ذلك عشر سنوات متتابعة . وفي ذات يوم بُهر رفاقه فجأة من مهارته في هذه المباحث . وقد اصبح بعد ذلك اكبر ثقة في التاريخ المصري القديم — ألا وهو غاستون مسبرو العلامة الشهير . فمثل هذه الموهبة الفطرية للاستطلاع والاستكشاف نادرة جداً بين النساء — ان لم تكن معدومة بالمرة . على انه ينبغي ألا يبرح من ذهننا انها نادرة كذلك بين معشر الرجال . والذي اراه في هذا الموضوع انه لو أتيح للنساء الانصراف الى الاعمال الجدية واصلحت تربيتهن ومعيشتهن لسما ما فيهن من حب الاستطلاع وانتقل من مرتبته السفلى الى مرتبته العليا

الكفاءة للبحث العلمي

واذا سلمنا المرأة بحب الاستطلاع فهل نسلم لها بالكفاءة للبحث العلمي ؟ ان هذه الكفاءة تقوم بقوى التجريد والتعميم والحكم وهي القوى التي ينكرها سواد الملاحظين على المرأة اذ يقولون انها كالطفل تكره المعاني المجرّدة (أي التي ليس لهـا مدلول محسوس) وتعجز عن استخراج الافكار العامة والاحكام الشاملة

ان في هذه التهمة قسطاً من الصحة . ولكننا اذا تمسكنا بمعناها الحرفي وجدناها واهية الاساس . فان من السهل تعليم المرأة العلوم الرياضية كالجبر والهندسة وغيرهما . وقد كانت شهادة الليسانس في الرياضيات اول الشهادات العالية التي حازتها النساء في فرنسا . وكثيراً ما يعلّمن تلك العلوم بحذق ومهارة . ويطول بنا الشرح لو اردنا سرد اسماء النابغات في العلوم من قديم الزمن فنقتصر على بعض الامثلة : ففي القرن الثامن عشر نبغت عالمة اسمها لورا باسي في مدينة بولونيا بايتاليا فجازت امتحان الدكتورية في الفلسفة وهي في الحادية والعشرين من عمرها ثم جلست على كرسي التعليم في جامعة بولونيا وعلمت الفلسفة فيها وظلت في مركزها هذا بعد ان تزوجت ورزقت عدة اولاد . ومن هـذا القبيل ايضاً مدام كوفالفسكا التي توفيت حديثاً فقد كانت أستاذة في جامعة ستوكهلم واشتهرت ببراعتها الفائقة في الهندسة . وقد تخرج على يديها نفر من علماء هذا العصر ومنحتها اكاديميـة العلوم الفرنسية الجائزة الـكبرى للعلوم الرياضية سنة ١٨٨٨ . وقس على ذلك أمثلة أخرى لا محل لذكرها

فمن ذلك نستنتج ان المرأة قد تنبغ في العلوم الرياضية وانه ليس في طبيعتها حوائل دون نبوغها في هذا المضمار . وما الفرق بينها وبين الرجل من هذا القبيل الا فرقاً نسبياً فقط وهو ناشىء بلا ريب عن نوع المعيشة والتربية والعادات

ولـكن هل نستفيد مما تقدم ان التهمة التي ذكرناها عن قصور المرأة في ادراك المعاني المجردة واستخراج الافكار الشاملة باطلة لا أساس لهـا ؟ كلا . بل لا تزال هذه التهمة صحيحة ولـكن قد تبين لنا الآن مجالها وتحددت أوجهها . فقد تبرع المرأة في مضمار الاعداد والمقاييس اذا وفقت الى من يحسن تعليمها وارشادها ولـكنها قلما تبرع في مضمار استقصاء الظواهر الطبيعيـة والاجتماعية وليس من السهل عليها ان

تستخرج الاحكام العامة من الحوادث المفردة . ولا غرابة في ذلك فان ما علمناه من أخلاق المرأة يمهد لنا سبيل توقعه : فقد رأينا انها قلما تعنى بغير المحسوس وانه يندر ان تحفل بالآراء العامة ، ورأينا أيضاً ان ذكاءها فطري غريزي مستمد من القلب لا من العقل . فمن ذلك نستنتج ان المرأة تكره المعنى المجرد والدرس التحليلي ، وانه يصعب عليها الانتقال من الخاص الى العام ومن الفردي الى الاجمالي ، وان لا صبر لها على ملازمة قواعد القياس المنطقي لما تجده فيها من النشوفة . والنساء اللواتي كتبن في هذا الشأن قد اعترفن جميعاً بذلك . قالت سيدة مستنيرة رداً على سؤال القيته عليها : « ليست قواعد القياس المنطقي من صنع المرأة ولا هي مصنوعة لاجلها » . وقد القى العلامة ريبو الشهير أسئلة على بعض النساء ليستدل منها على تصورهن للمعاني المجردة كمعنى « السبب » ومعنى « العدد » فوجد انهن على الغالب لا يتصورن تلك المعاني الا في صور محسوسة ـ أي انهن لا يدركنها مجردة بل مقرونة باشياء وحوادث واقعة في دائرة اختبارهن . وانه ليتعذر عليهن تجريد تلك المعاني وادراكها وحدها بقطع النظر عن تلك الاشياء والحوادث

ومثل ذلك يقال في الحكم . فليس التروي في الاحكام من صفات المرأة . بل كثيراً ما تثب من المقدمة الى النتيجة وثبة واحدة ، أو قد تعتمد على براهين لا قيمة لها من الوجهة المنطقية ، فتعد يقيناً ما يفتقر الى الاثبات ، وتصغي لوحي قلبها في حين ينبغي أن يكون الحكم للعقل وحده . . . الى آخر ما هنالك من العوامل المضللة للبصيرة . وليس اتعب للرجل العاقل الرزين من مجادلة امرأة ـ مهما تكن مثقفة مستنيرة ـ فانه من الصعب عليها تتبع حلقات الجدال وحصر كلامها في موضوع المناقشة . كنت ذات يوم احدث سيدة عن مواعظ القاها أحد مشاهير الخطباء في موضوع « الفقر » . فقلت لها ان الخطيب اجاد في الكلام ولكن ليس في معانيه ما يعد جديداً وقد كان الجمهور يتوقع غير ما سمع . فاجابتني على الفور : « ولكن يا سيدي اذا ألغيت الاحسان من العالم فما الذي يحل فيه حينئذ ؟ » كأني بانتقاد الخطيب قلت بابطال الاحسان . فهذه القصة مثال لما يحدث كثيراً من خروج السيدات عن الموضوع الذي يدور عليه الحديث

وهاك مثلاً آخر ـ ولعله أدل من المثل الاول : دار الحديث يوماً بيني وبين سيدة

وفتلها على موضوع الزواج. فقالت الفتاة : « لا أتزوج الا اذا وجدت رجلاً كوالدي » فاجبتها : « . . . ولكن يا صديقتي هل تظنين أنه من السهل العثور على من يشبه والدك ؟ » مما كان قصدي من هذا القول الا أن أبين لها مقام والدها في نظري . على اني علمت بطريق الصدفة فيما بعد ان الفتاة ذرفت دموعاً غزيرة في ذلك المساء اعتقاداً منها ـ كما قالت ـ « اني لا أحبها واني لا أريد سعادتها »

فليس ما هو ألزم للسيدات من التدرب على القياس العقلي الصحيح وعلى التروي في الحكم وتمحيص الادلة والبراهين وتمييز المثبت من غير المثبت والمرجح من اليقيني . فلئن لم يتسنَّ ذلك الا لافراد قليلين فانهُ أندر بين النساء ولذا كانت حاجتهن الى الاصلاح اعظم

الخلاصة

وخلاصة هذا المبحث ان لدى المرأة قدراً عظيماً من الذكاء وان ذكاءها حاد « وثاب » . ولكنه مع ذلك ـ بفعل الطبيعة وفعل التربية ـ قليل العمق قصير المدى ، كما أنه قليل التروي سريع الوصول الى النتائج . ومن اوصافه أيضاً انه دقيق اكثر منه متين وفطري اكثر منه اكتسابي . وليس كل ذلك حجة للاحجام عن تثقيفه وتقويته بل الامر بعكس ذلك فليس من غرضنا مجاراة شربولين في قوله : « تحمل المرأة علمها كما تحمل ساعتها ـ فانها لا تحملها الا ليعلم الناس بوجودها وان لم تدرْ قط أو لم تدر بانتظام » بل اننا نقول مع مدام دي منتنون : « ليس علمها الا نصف علم لانها تكتفي بحفظ ما تتلقنه بلا فحص ولا تمحيص ومن دون أن تستكشف شيئاً بنفسها ، في حين أن هذا هو اساس المعرفة الجيدة »

والذي أراه أن ما في المرأة من الذكاء الفطري والمهارة الطبيعية يفوق بلا ريب ما تكتسبه من العلم والمعرفة . فينبغي ألاّ يكون تعليمها قاتلاً لما فيها من السجايا الغريزية . فلئن كانت مواهبها العقلية مختلفة فانها تمتاز على الخصوص بذلك الذكاء المرن الذي يجعلها ماهرة في حسن التخلص قادرة على حزر الرغائب الخفية والنزعات الكامنة

ولذا تبرع المرأة في فن الحديث كما تبرع أيضاً في كتابة الرسائل الودية ـ وليست المراسلة الا حديثاً مكتوباً . ولكنها مقصرة في ما يستدعي صدق النظر وصحة القياس

وضبط المنطق . وعلى الاجمال تبرع النساء في الادب اكثر من براعتهن في العلوم

على انه من الميسور تدريبهن شيئاً فشيئاً على طرق التفكير العلمي الصحيح واصلاح ما فيهن من الطواعية الزائدة والقابلية للاستهواء وكل ما من شأنه حملهن على تصديق ما يقال أمامهن بلهجة التأكيد من غير نقد او تمحيص . ان هذه المهمة شاقة بلاريب . ولن يتم هذا الاصلاح في جيل واحد فليس المطلوب فك القيود التي تربط عقل المرأة وانما المطلوب تهذيبه وتدريبه على الطرق القويمة . ويتعذر علينا منذ الآن معرفة مدى الرقي الذي تصل اليه المرأة اذا انتهجت هذا المنهج . فلندع ذلك للايام تبينه وتستجليه . والاجدر بنا ان نترك للمرأة نفسها تحديد ذلك المدى لا ان نحدده نحن بأثرتنا واستبدادنا

وعلى كل حال فليس المطلوب من النساء ان يجارين الرجال في البحث والتنقيب . فتقدم البشرية لا يتم في معمل العالم وحده أو في مكتب الفيلسوف . ولا بد من معاونة النساء في هذا السبيل . فليست غاية المرأة القصوى ان تكون عالمة أو فيلسوفة بل يكفيها ان تحيط بما بلغته البشرية من اوجه الرقي العلمي والفلسفي وان تقدر ذلك حق قدره . فان عنايتها بهذه المواضيع كافية وحدها لحمل الرجل على ايضاحها واستجلائها ـ وأي حاجة فيما سوى ذلك تحملها على انتاج الآثار الادبية والعلمية ؟ فالواجب عليها اولاً ان ترينا كيف نحسّن معيشتنا وكيف نستلذ ما في الحياة من طيبة وجمال ومحبة . ولعل ما في المرأة من روح المحافظة على القديم ملطف لهجم الرجل على المجهول الجديد ـ ومن شأن ذلك حفظ التوازن المعنوي بين البشر

الفصل العاشر

ارادة المرأة

لقد وصلنا الآن الى القسم الاخير من الاقسام الثلاثة التي تتألف منها الحياة العقلية . فقد درسنا احساس المرأة ثم درسنا ذكاءها . وبقي علينا ان ندرس ارادتها وما يدخل في ذلك

تعريفات ضرورية

وظيفة الاحساس في الحياة قبول التأثيرات التي تدفع الى العمل ، ووظيفة الذكاء التمييز والارشاد قبل الاقدام عليه . وبعبارة أخرى ان الاحساس يحثنا على العمل والذكاء يهدينا الى الطريق الملائمة له . أما الارادة فهي المنفذ لما نطلب ونبتغي . على انه يجب ألاَّ يبرح من الذهن ان هذا التحليل مختلق لان تلك العناصر لا تبدو مستقلة بل تكون مركبة متداخلة على الدوام . فاننا في كل لحظة من حياتنا نحس ونفكر ونعمل معاً . وانما الفرق في استظهار احدى هذه القوى على سواها وبروزها عليها

ولا يخفى ان فريقاً من الفلاسفة ينكرون حرية الارادة في الانسان ويعدونه بمنزلة الآلة الميكانيكية التي تحركها قوى مختلفة فتتجه مضطرة في جهة القوة الغالبة أو في الجهة التي تتعين من تفاعل تلك القوى . ولكني ممن يرون خلاف ذلك الرأي فاني أعتقد ان في البشر ارادة حرة وهي تلك القوة الداخلية التي تكوّن الخلق وتكيف النفس . وليس هنا مقام التوسع في هذا المبحث الذي يصعب فيه الوقوف عند حد

ومما يجدر ملاحظته أن قوة الارادة في المرء غير قوته الحيوية . فقد تجد بين الناس من هم اصحاب نشاط جسدي عظيم في حين ان نشاطهم المعنوي ضئيل ، كما انك قد تجد ارادة حديدية وعزماً صادقاً في اجسام نحيلة مهزولة

ثم ان لكلمة « ارادة » معنىً عاماً ومعنى خاصاً . فبالمعنى العام تشمل الارادة أعمال الانسان جميعاً سواء صدرت عن الغريزة أو البصيرة . وبالمعنى الخاص تفيد

العمل المتأتي عن البصيرة والروية ، المبنيّ على مبادئ معلومة اتخذها الانسان نبراساً لحياته ـ وهذا هو المقصود حين نصف رجلاً بأنه صاحب ارادة . فانما نريد بذلك أنه مالك لزمام اهوائه قادر على تدبير نفسه

وبهذا المعنى الخاص نجد في الانسان نوعين من الارادة :

اولاً - القوة التي بها يبت ويقرر

ثانياً — القوة التي بها ينفذ مراده ويثبت فيه

فلا يكفي ان نبتّ في الامر الذي نريده ونقرر مصيره . بل يجب أن ننفذه ونثابر عليه . ولا ريب في ان قوة التنفيذ والثبات اعظم شأناً من قوة البت والجزم ، فضلاً عن كونها اندر منها بين الناس . فكثيرون هم الذين يعزمون ويقررون ولكن قليلين منهم ينفذون ما عزموا عليه ويصبرون على تذليل العقبات التي تعترضهم . وانما رجل الارادة هو ذاك الذي اذا ما عزم على امر لم يأل جهداً في تنفيذه رغم الحوائل التي قد تحول دونه . فمن الناس من يتحولون عن اغراضهم عند اول عقبة يتعثرون بها ولذا كانت اغراضهم متلونة متنقلة على الدوام لا تعرف الاستكانة والاستقرار . ولعل من هذه حالته أضعف الناس ارادة ـ وان توهم انه يعمل ما يريد

وهناك ضعف آخر في الارادة يحسن بنا الاشارة اليه في هذا المقام ـ وهو العناد . وشتان بين العناد والثبات ! فالعناد بمنزلة جمود في الارادة ينم عن نقص في التكوين الخلقي . ولنتقدم الآن بعد هذا التمهيد الوجيز الى استبانة مظاهر الارادة في المرأة

المرأة

يضرب المثل بضعف المرأة المعنوي . ومن الحطة في نظر الرجل أن يشبه بها من هذا القبيل . فليس من اهانة له اعظم من ان يقال عنه « انه كالمرأة في جبنه » . بل كأن النساء يصادقن على هذا القول بايثارهن رجال الاقدام والنشاط . وطبيعي في الانسان أن يطلب ما ينقصه وما يكمله . قالت مدام دي منتنون : « الرقة فضيلة جنسنا فعلينا أن نترك للرجال ما يبدونه من الجرأة والبأس في ساحات القتال . . . فلا يلائم اخلاقنا الا الحياء والاتضاع »

ومع ذلك ان الشواهد كثيرة تدل على بسالة المرأة وشجاعتها في بعض الاحيان . ولا حاجة بنا الى ذكر قائمة وافية بنابغات النساء في هذا المضمار قديماً وحديثاً . فمن أمثلة ذلك

ما ذكره تاسيت عن امرأة سنيكا الفيلسوف من انها لدى وفاة زوجها بضعت نفسها بموسى لتموت معه وقد تدوركت وهي مشرفة على الهلاك . وذكر تاسيت ايضاً قصة امرأة رومانية دبرت مؤامرة فلما طلبت للمحاكمة خنقت نفسها كي لا تجبن امام قضاتها كما جبن زملاؤها الذين أخذوا يتنصلون من التهم الموجهة اليهم ليتهموا بعضهم بعضاً . وأمر الهنديات اللواتي كن يحرقن أنفسهن أثر موت ازواجهن مشهور عند الجميع . والتاريخ ممتلئ بالحوادث التي من هـذا القبيل . بل كثيراً ما قاتلت النساء بجانب الرجل ولا سيما في ايام الثورات والانقلابات مما يضيق المقام عن سرده [1]

ولئن كانت هذه الحوادث استثنائية فانها كافية للدلالة على أن طبيعة المرأة لا تحول دون متانة خلقها وسمو نفسها . ثم ان لها جرأة من نوع مخصوص ولا سيما متى اقتضت الحال جلداً وصبراً . فهي بارعة في هذا الضرب من الشجاعة وشتان فيه بينها وبين الرجل . وبعبارة أخرى انها تبرع في ما يتطلب منها أن تقاسي وتعاني اكثر من براعتها فيما يستدعي النشاط والاقدام

على ان هناك أمراً يجب ان يكون مانعاً لمعشر الرجال من رمي المرأة بالجبن وهو حطة الغاوي الذي يحجم عن منازلة من يوازيه قوة فينتزل الفتاة الضعيفة الى هاوية الفساد حتى اذا نال منها وطراً لم تؤثر فيه دموعها ولم يرق لتوسلها واستعطافها . ومع ان الرأي العام لم يتنبه بعد لدناءة هذا العمل وشناعته فانه يتعذر ان تجد خسة تهبط بالانسان الى أسفل من هذه الدركة

قوة البت والتقرير

أما قوة البت والتقرير فهي في المرأة على الاجمال أضعف منها في الرجل . فما منشأ هذا الضعف يا ترى وهل ينشأ عن خمول في فطرتها ؟ كلا فانه يتأتى في الحقيقة عن شدة اندفاعها . فليس عائقها عن البت والتقرير قعود فكرها وقلة مطاليبها وانما العائق حدة طبعها وكثرة رغائبها وتلون نزعاتها — هـذا هو ما يجعلها متخلفة في مضمار الحكم الاستقلالي . ولا يخفى ان الاستقلال في الحكم هو أول ما يكوّن الذاتية المعنوية

ولكي تتحول الدوافع والبواعث التي تتجاذبنا الى أحكام وقرارات لا بد لها

(١) انظر مقالة النساء المقاتلات قديماً وحديثاً في الهلال سنة ٢٦ صفحة ٣٢٩

من شرطين : أولاً ان يستمر تأثير الدافع أو الباعث مدة من الزمن حتى يتسنى له ان يكون بداية سلسلة من الاعمال . ثانياً ان يداخله قسط من التفكير كي يقبله العقل ويوافق عليه . فهذان الشرطان ينقصان المرأة غالباً اما لكثرة رغباتها أو لتسلط رغبة واحدة على حياتها . ففي الحالة الاولى تتتابع الرغبات في نفسها من غير ان تقر على شيء منها . وفي الحالة الثانية تستعبد لهوى أعمى يُخضع كل عمل من اعمالها . قال أحدهم : « المرأة إما ان تكون معدومة الجرأة أو ان تكون متطرفة فيها » . وكلا الحالتين ضعف خلقي

ثم ان هناك سبباً آخر يمنع المرأة من مجاراة الرجل في قوة البت والحكم وهو ما تتصف به من التقليد وقابلية الاستهواء . فانها قاصرة بطبيعتها عن التفكير وحدها ويندر ان تكون افكارها غير مستمدة من البيئة والعادة والعرف والرأي العام او من الشخص الذي تحبه وتوقره . لان المرأة مفتقرة دائماً الى من يعينها ويرشدها مادياً ومعنوياً . ولئن اقدمت المرأة احياناً ـ عند ما تفقد سندها ـ على تدبير شؤونها وشؤون دارها وأسرتها فانها لا تلبث ان تشعر بتعب عظيم من جراء ذلك فتشكو امرها للمقربين اليها في حين يعجب الغرباء بقدرتها . واذا تبصرت في حالة الفتيات وجدت ان ذلك النقص الخلقي ـ أي افتقارهن الى المتانة المعنوية والاعتماد على النفس ـ من الصفات المرغوبة فيهن بوجه الاجمال . فالرأي العام يستهجن الفتيات المستقلات صاحبات الذاتية البارزة . وهذا ما ينبغي ملافاته بالتربية الصحيحة التي تقوي في المرأة قوة الحكم والتقرير على شرط الا تنقص شيئاً من ظرفها ورشاقتها . ولعل هذه المسئلة اعقد المسائل في تربية البنات

قوة التنفيذ والثبات

ينبغي لنا الآن أن ندرس مقدرة المرأة على تنفيذ ما تقرره وثباتها في الخطط التي ترسمها . ففي هذا المضمار ايضاً نجدها متخلفة عن الرجل . فلقد تحسن المرأة امراً في بدايته ثم تقف عند هذا الحد وتعجز عن مواصلته . أما سبب هذا الضعف الخلقي فليس من الصعب استكشافه . فما هو الا تنقل المرأة في رغباتها الناشئ ـ كما رأينا ـ عن قابليتها الشديدة للتأثر من اتفه الاشياء . قال ريشتر : « قد ينقاد الرجل لهواه أما المرأة فتنقاد

لاهوائها : هذا يتبع مجرى شديداً وتلك تتلاعب بها مجار متناقضة » . ولذا فالمرأة موصوفة بتنقل مطالبها وتلوّن اغراضها . وهي في الغالب لا تتعمد ذلك فانما هذا طبعها الذي فطرت عليه

وقد ذكر ريبو بين امراض الارادة خلق التقلب والتلون فدرسه بالتدقيق والتفصيل . على اننا لا نعده مرضاً نفسانياً الا حين يجاوز الحدود المألوفة . وبهذه الصورة يشاهد في الهستيريات والعصبيات

ودرس ريبو ايضاً ضعف الانتباه وعده كذلك من امراض الارادة ففصل بينه وبين خلق التقلب والتلون . والحقيقة ان الحالتين نتيجة عجز الانسان عن امتلاك نفسه والسيطرة على احساساته ، اذ تكثر فيه الصور الجذابة والانفعالات الشديدة فتتغلب القوى الدافعة على القوى المانعة فيقدم الانسان على العمل من غير روية . قال : « ان الاولاد والنساء وأصحاب العقول الخفيفة لا يستطيعون حصر انتباههم لمدة طويلة لان التأثيرات التي تحدثها الاشياء في نفوسهم ضئيلة جداً »

وجملة القول ان الذي يمنع المرأة من حصر انتباهها في مجال ضيق هو كونها لا تملك انفعالاتها مع كثرتها وتناقضها . ومن شأن ذلك تشتيت الانتباه كما ان من شأنه تنقل الرغبات وتلوّن الاغراض

ولا يخفى ان الهستيريا من الامراض الشديدة الانتشار بين النساء وان لم تكن خصيصة بهن . وما الهستيريا الا مرض مزمن يصيب الارادة فيجعل المصاب به متقلباً على الدوام لا يثبت ولا يستكن : نتراه تارة مغبوطاً وطوراً مغموماً ومرة لطيفاً وأخرى غليظاً — وبعبارة وجيزة فاصحاب هذا المزاج لا يستقرون على حالة الا حالة التقلب ، بل كأن عقلهم في فوضى مستديمة

على ان هذا الوصف بعد تلطيفه وتخفيفه ينطبق على السيدات بوجه الاجمال

الجلد

ولكنه جدير بنا ألا نتمادى في هذا المقال . فلئن سلمنا اجمالاً بان رغائب المرأة متقلبة على الدوام فالعاطفة الشديدة حين تستولي على قلبها تجعلها عظيمة الجلد عجيبة الصبر والاحتمال — حتى لقد تفوق اصبر الرجال وأحلمهم . ولا بد لذلك — كما ذكرنا — من عاطفة تستولي عليها . وقد تكون حباً قوياً أو ايماناً شديداً أو غير ذلك

ولست أدري هل لحظ أحد قبلي هـذه الميزة في المرأة . فانه يتراءى لي انها تملك نفسها في الحوادث الخطيرة اكثر مما تملكها في الحوادث التافهة ، وانهـا تقدر على مقاومة الانفعالات الشديدة اكثر من قدرتها على مقاومة الانفعالات الخفيفة . كأن خفتها وتنقلها لا يتجاوزان الطبقة السطحية من حياتها . فانه يندر ان تجد امرأة لا تضطرب لدى مشاهدة فارة أو صرصور ، في حين ان كثيرات يظهرن في الملمات قدراً عظيماً من الرزانة ورباطة الجأش . فمن ذلك ما حدث على السفينة « أو ريغون » وهي تغرق في البحر اثر اصطدامها بسفينة أخرى سنة ١٨٨٦ فقد شهد أحـد الركاب ان النساء أبدين في تلك الساعة الحرجة من رباطة الجأش وقوة النفس اكثر مما أبدى الرجال . بل هذا هو المألوف في معظم الحوادث التي من هذا القبيل . ومع ذلك فقد تفقد المرأة رشدها بازاء حادث ضئيل الشأن . فانها حين تركب عربة ـ مثلاً ـ تهب من مكانها لاقل طارىء كازدحام الشارع او تلامس العربات او نحو ذلك . ولـكنك في الشدائد تجدها رزينة جلودة ولا سيما اذا لم يكن ثمت مفر منهـا مثل ما يحدث في أزمنة الاوبئة

وتستطيع المرأة احتمال الفقر الى درجة عجيبة وخصوصاً اذا أعينت على احتماله بشيء من الدراية والعناية . على انك من جهة أخرى قد تجد بين النساء من يحملن أزواجهن على ارتكاب الدنايا ليتيسر لهن البذخ والانفاق . ولـكني في مثل هـذه الحال ألوم الرجل الذي ينقاد الى امرأته اكثر مما ألومها هي لان عليه تقع تبعة سلوكها في معظم الاحيان

فبهذا الاعتبار يجوز لنا القول بان المرأة تصبر على المصائب الجسيمة اكثر من صبرها على المضايقات الطفيفة ، وانها تحتمل الضربات اكثر من احتمالها للوخزات

حدثتني سيدة انكليزية قالت : «ان معظم الانكليز لا يحبون النساء الموظفات في المصالح العمومية كالبوستة والتلغراف لانهم يجدونهن في الغالب دون الرجال صبراً واقل منهم لطفاً ولا سيما مع السيدات . كذلك يقال في المخازن فقد لاحظوا أن المستخدمين أصبر من المستخدمات على خدمة السيدات وتلبية طلباتهن الـكثيرة »

ومن العقبات دون قوة التنفيذ في النساء روح الخلط والتعقيد المألوفة فيهن . فالمرأة ميالة بفطرتها الى المواربة والتطويل ويندر أن ترى الاشياء على بساطتها ، كما يندر أن تسعى الى غرضها من اقرب طريق . قال احدهم : « يتعذر ان تجد امرأة

تقول لك (انتهى) من غير شرح وتفسير أو تقول (نعم) و (لا) من دون القاء خطبة مستفيضة »

العناد

وما عسى أن نقول الآن عن عناد المرأة المشهور ؟ قال مونتاين الكاتب الفرنسي : « عرفت مئات من النساء تستطيع حملهن على عض الحديد الحامي ولا تستطيع اقناعهن بالتخلي عن رأي ابدينه في ساعة الغضب . . . »

والامثال المتداولة في هذا المعنى كثيرة . منها المثل الفرنسي القائل : « ان من يطلب اصلاح امرأة كمن يطلب تبييض اجرّة (قرميدة) » . وليس العناد ثباتاً بل لعل اعند الناس اضعفهم خلقاً . وقد قيل « العناد ثبات الضعفاء » . فمن الصعب على المرأة ان ترجع عن قولها وتعترف بغلطها وقلما تقول : « أخطأتُ »

من ذلك نرى ان العناد هو الصورة التي تتجلى بها ارادة المرأة في معظم الاحيان . ولا ريب ان المثل قصد ذلك حين قال : « ما تريده المرأة يريده الله » . فلا بد اذاً من تلطيف هذا الخلق فيها بالتربية الصالحة حتى تملك ارادتها وتسيطر على اعمالها بدلاً من ان تكون عرضة للاهواء والانفعالات

الفصل الحادي عشر

مصير المرأة

غرض التربية الاساسي ان تنمي المواهب المغروسة في طبيعة المخلوق المراد تربيته حتى يتيسر له ان يحقق غايته من الوجود . ولذا يجدر بنا اولاً ان نرى ماهية تلك الغاية التي تدأب اليها المرأة حتى يتسنى لنا ان نرسم لتربيتها خطة قويمة رشيدة . فما الذي نستنتجه من درسنا لاخلاق المرأة وسجاياها في الفصول السابقة ؟

غاية المرأة من الوجود

ان الجواب الاول على هذا السؤال ـ وهو ما يجيب به العقل على بداهته وما تجيب به الفلسفة الصحيحة أيضاً ـ ينحصر في قولنا ان المرأة جعلت لتكون شريكة الرجل . قالت مدام دي ستال : « ينبغي ألا يبرح من ذهن المكلفين تربية الفتاة انها جعلت لتكون يوماً رفيقة الرجل » . فغايتها القصوى ان تكون زوجة وأماً ، وهو ما يجب على التربية ان تؤهلها له حتى يسهل عليها انتهاج الطريق المرسوم لها وحتى يتسنى لها القيام بوظيفتها حق القيام . بذلك تضمن راحتها وسعادتها

* * *

تلك هي الحقيقة التي لا جدال فيها . بل انها على بساطتها أساس النظام الاجتماعي . وان تبلغ التربية غرضها ما لم تضع تلك الحقيقة ـ مع قدمها ـ نصب عينها على الدوام . واني أطلب الى الله ان يجيرني من اهمال هذا المبدأ الاساسي حباً بطلب الجديد من الآراء . فاني من الذين يقولون بان غاية الرجل الزواج والابوة ، بل اكاد أعد بين المجرمين كل من يحجم عن القيام بوظيفة الرجولة الحقة . فاحرى بي اذاً ان اكون في مقدمة القائلين بمثل ذلك فيما يخص المرأة

أجل . هذا هو اعتقادي اليقيني الصريح . ويكفيني ان أقول الآن ان غاية المرأة في المقام الاول ان تتزوج ان استطاعت ذلك ، وان تلد أولاداً اذا انعم الله عليها بهذه النعمة ، وان تربيهم التربية الصالحة القويمة . فالمرأة التي يتاح لها هذا المسلك وتحجم عن سلوكه خليقة بان نرثي لها من صميم قلبنا

ولا بد لنا من تحديد هذا المبدأ الاساسي والنظر فيما يحتمله من التحفظ والاحتراس. فانه مع صحته لا يفصح الا عن جانب من الحقيقة . اذ لا منـاص من اشتراك الرجل والمرأة في تأسيس العائلة وليس هذا الامر موكولاً بها وحدها . وفي الواقع اننا نجد كثيرات من النساء غير متزوجات ، كما ان بين المتزوجات من لا يتاح لهن ان يكن أمهات، فضلاً عن اللواتي يترملن ويقضين جانباً كبيراً من حياتهن في الوحدة والاعتزال . تلك أمور راهنة لا سبيل الى اغفالها فعلينا أن نحسب لها حساباً في المبحث الذي نخوضه. ومن جهة أخرى يهب انه أتيح للمرأة أن تعرف الزواج والامومة فينبغي مع ذلك اشراكها في ما يُعد اساسياً من خواص البشرية . فكل من الرجل والمرأة يؤلف شطراً من الجنس البشري . وصفة «البشرية» فيهما آصل من صفة الذكورة او الانوثة . فالرجل انسان قبل أن يكون زوجاً واباً ، وهو ما يحتم عليه اعتبار صفات الانسانية قبل صفات الرجولة . كذلك ينبغي للمرأة ان تطلب تلك الصفات قبل صفات جنسها الخاصة

ولندرس الآن هاتين النقطتين بشيء من التدقيق

١ — المرأة خارج الحياة الزوجية

قلنا ان الزواج ليس من نصيب المرأة دائماً . فانها تقضي القسم الاول من حياتها في العزوبة . وفي بعض الاحيان تبقى كذلك طول حياتها ، كما انها قد تترمل بعد زواجها . وهذه الاحوال موقوفة في الغالب على اسباب لا تقع تحت سلطانها . فهل من العدل اذاً ان نقول عنها انها لم تجعل الا لتكون زوجة واماً ، وانها فيما عدا ذلك عديمة الشأن؟ وهل من الصحيح أن يكون حكم المرأة من هذا القبيل غير حكم الرجل ؟ وهل تخطئ المرأة غايتها من الحياة اذا لم تتزوج اكثر مما يخطئ غايته الرجل الذي لم يتزوج ؟

كثيراً ما نسمع معشر الرجال يتبجحون بهذا القول ويدعون فيما بينهم ان حياتهم قد تكون كاملة بلا زواج ولا أبوة . بل منهم من يدعون ان العزوبة اشد ملاءمة لرجال الفن والعلم والعمل . تلك في اعتقادي اوهام باطلة . فان الرجل الذي لم يتح له ان يختبر هموم الزواج ولذاته لا يستحق ان يسمى رجلاً بالمعنى التام . وليس ثمت نفور بين الحياة الزوجية والحياة الفنية او العلمية . ولئن فضل بعض اهل الفن عيشة العزوبة لما فيها من الحرية الموهومة — والحقيقة ان عبوديتها لا تقل عن عبودية الزواج — فانك

نجد من جهة اخرى ان مشاهير العلماء ورجال الادارة والسياسة كانوا ازواجاً وآباء ، وان المعيشة العائلية لم تحل دون قيامهم بواجباتهم الخطيرة . بل كيف يجوز الفصل بين الرجل والمرأة في هذا الشأن ؟ ولمَ لا يكون الصالح له صالحاً لها ايضاً والطالح طالحاً لكليهما على السواء ؟

ولا يظن ظان اني قد تناسيت ما قلته سابقاً من ارتباط المرأة بوظيفتها الخاصة اكثر من ارتباط الرجل بوظيفته . على أن ذلك الفرق نفسه يجب أن يكون مانعاً لنا من التمادي في ظلم المرأة وتعظيم ما نالها من حيف الطبيعة . فهل من الانصاف أن نميز الرجل على المرأة من هذا القبيل ؟ ولمَ لا نبيح لها ان تختار الحياة التي تحلو لها ما دمنا نبيح له ذلك ؟ واذا كان في العزوبة امتياز فلمَ لا يمنحها الرجل الحق الذي يمنحه لنفسه ؟ قد يقول أن زواجها ضروري لحفظ النوع . فهل فاته انه نظيرها في ذلك وان شأنهما واحد بحكم الطبيعة ؟ وعندي انه اذا كان احد الفريقين احوج من الآخر الى التذكير بواجباته فما ذلك الفريق الا معشر الرجال

وفي نظري أن السبب الوحيد الذي قد يحملنا على القول بان المرأة جعلت للزواج اكثر مما جعل له الرجل وان لا خلاص لها الا بتكريس حياتها لهذه الغاية هو ما نراه من اضطرارها في الوقت الحاضر ـ بفعل التربية والعادات ـ الى الاعتماد عليه ليعولها ويحميها . ولو تسنى ذلك لكل امرأة لهان الامر وحلت المسئلة النسائية على ابسط الصور . ولكن الواقع ان بعض النساء لا يتزوجن . واسباب ذلك مختلفة ولعل أهمها احجام الرجال عن طلبهن للزواج

فلا بد اذاً في تربيتهن من التحوط لهذه الحالة . لانهن اذا لم يعددن الا للزواج اذ ذاك يخشى عليهن ـ حين لا يوفقن الى تحقيق تلك الغاية ـ ان يصبحن عالة على غيرهن . اما اذا تعامى الرجل عن هذه الحقيقة وامتنع عن اعداد المرأة لما قد يطرأ عليها من الطوارئ فكأنه يريد اذلالها له على الدوام وتجريدها مما يعينها على الارتزاق في حالة الضيق

ان الحوادث المشاهدة كل يوم تدلنا على ان عدد النساء اللواتي يحتم عليهن الاعتماد على أنفسهن ليس بقليل وانه كثيراً أيضاً عدد الارامل اللواتي يفرض عليهن تربية أولادهن واعالة عيالهن . فكل ذلك يحملنا على القول من غير تردد انه يجب تأهيل المرأة لمقابلة

ما يحتمل ان تقع فيه من تلك الاحوال حتى تستطيع القيام باودها و باود من يوكل اليها أمرهم

هذه هي الحقيقة التي تتجلى لكل من يتأمل في موضوع المرأة بانصاف . بذلك تمنح المرأة قسطاً من الاستقلال الذاتي يرفع شأنها اذا لم تتزوج ، بل اذا تزوجت أيضاً . ولست أعني بذلك الاستقلال ازدراء المرأة بالزواج ، بل قدرتها على الحكم فيه وفقاً لما يتراءى لعقلها وقلبها واستطاعتها الانتظار ريثما يتسنى لها الاقتران بمن تميل اليه . ولست بمجد منصفاً لا يوافق على اصلاح التربية في هذا المعنى

٢ — مشاركة المرأة للرجل في غواصي البشر الاساسية

ولكن ذلك لا يكفي . فاذا سلمنا بان اول غايات المرأة ان تتهيأ للزواج والامومة فلسنا نسلم بان ذلك كل غايتها من الوجود

وقد تبين لنا من الفصول السابقة ان المرأة تحوز جميع المواهب التي يحوزها الرجل — وان اختلفت مظاهرها في الفريقين . فان ما بينهما من الفرق في هذا الشأن قدري عرضي وليس نوعياً جوهرياً . وهذا ما يحدونا الى القول بان المرأة كالرجل قابلة للرقي المعنوي من جميع وجوهه . ولما كانت المبادىء الاساسية للتربية والسلوك واحدة في الجنسين وجب ألا يبرح من ذهننا ان للمرأة حقاً في ورود المناهل التي يردها الرجل ومشاركته في ما يتمتع به من اللذات المختلفة بصفة كونه انساناً . ولذلك ينبغي تقوية ما فيها من السجايا الصالحة واصلاح ما فيها من الاميال الفاسدة

هذا ما تقتضيه مصلحتها الشخصية اولاً وهو ما تقتضيه مصلحة العائلة ايضاً ومصلحة البشرية جمعاء

قال فنلون : « أليس عليهن (أي على النساء) يقف عمار البيوت وخرابها ؟ بل أليس تدبير المملكة المنزلية من شأنهن — وهو ما يجعل لهن اليد الطولى في تكوين المألوف من العادات ؟ . . . وكيف يتوقع الرجل راحة او هناء اذا تحولت الحياة الزوجية الى مرارة وشقاء ؟ بل ماذا يكون من أمر الاولاد وهم رجال الغد ان لم تعن بهم والدتهم حق العناية ؟ . . . »

فلهذه الاسباب جميعاً يجب تهذيب المرأة بقدر المستطاع لتضمن كرامتها وسعادتها

يجب تهيئتها لتكون زوجة واماً اذا أتيح لها ذلك ، ولكن يجب أيضاً ان تكون مهيئة للعمل وحدها والاحتفاظ بمركزها حين لا يتاح لها ذلك . فعلينا ان نبذل جهدنا لنجعلها عاقلة رزينة في المقام الاول . وليس ما في طبيعتها من الضعف في الوقت الحاضر حجة لحرمانها من تلك التربية الصالحة بل يجب ان يكون حافزاً لنا ولها على السعي في ازالته

وقد اقتربنا الآن من درس الحركة النسائية التي أصبحت ذات شأن عظيم في هذا العصر فلندرسها بانصاف معتمدين على المعلومات التي اكتسبناها فيما تقدم

الفصل الثاني عشر

مصير المرأة (تابع)

ماتحتمله حالتها من أوجه التحسين

خليق بنا الآن ان نخوض هذا المبحث الخطير فنستقصي امر الحركة النسائية التي ما برحت تعظم شأناً في السنوات الاخيرة .على انه لا يزال في تلك الحركة بعض الغموض والابهام فلم تتفق الآراء بعد في هذا الشأن

ومهما يكن الامر فقد تضخمت هذه الحركة وعظم شأنها حتى لم يعد في الامكان اغفالها ولا سيما ان القائمين بها ليسوا من النساء فقط بل فيهم نفر من اعاظم الرجال . وانا ذاكرون فيما يلي بشيء من التفصيل آراء اثنين من اكبر المفكرين وهما جون ستيورت ميل الانكليزي وسكريتان السويسري

آراء جون ستيورت ميل

كتب ميل كتاباً بليغاً عن عبودية النساء Subjection of Women عد فيه من الظلم أن تكون المرأة خاضعة للرجل كما هي حالها اليوم بمقتضى الشرائع المدنية والسياسية في جميع الدول المتمدنة

ولا يرى ميل لذلك الخضوع مبرراً من الوجهة المعنوية . وتعليله الوحيد لحالتها الحاضرة هو تاريخها الماضي واستظهار الرجل عليها في القوة الجسمانية . وفي نظره انه ليس من علاج شاف للحيف الذي تحملته المرأة تلك الدهور الطويلة الا المساواة المطلقة بين الجنسين . ويدخل في ذلك تساويهما في ميدان السياسة ـ أي في حق التصويت وحق النيابة

وقبل التوسع في بيان آراء ميل يجدر بنا ان نشير الى تأثير امرأته في حياته . فقد وفق الى امرأة نادرة المثال كان لها اعظم اثر في نفسه . وهي التي اوحت اليه ما جاهر به من المطالبة بحقوق النساء والمدافعة عن قضاياهن ـ وفي ذلك ما يدعو الى

التأمل ولا سيما ان ميل كان مشهوراً بالتعقل والرزانة ومع ذلك فقد غالى في آرائه بتأثير العاطفة التي سيطرت عليه

ويتوقع ميل من هذا القبيل ثورة تصلح معها حالة النساء . فلقد هدم البشر في هذا العصر ما كان قائماً بين الطبقات المختلفة من الحواجز والسدود . وهذا هو ما يحمله على الاعتقاد بدنو العهد الذي تعتق فيه المرأة من عبوديتها ـ تلك العبودية التي لا مسوغ لها الا النقائص التي ولدتها في خلق المرأة مع توالي الزمن . وقد ذهب ميل الى ان عبودية المرأة أشد انواع العبودية لان السيد لا يدعي حقاً الا على جسم عبده . أما فيما يخص المرأة فالرجل لا يستعبد جسمها فقط بل يذل نفسها وفكرها وعاطفتها . فلا بد من انقلاب اجتماعي يساوي بين الرجل والمرأة في واجب التضحية الذي مابرح محصوراً فيها وحدها . ولا يعقل ان يتمادى المسيحيون ـ الذين يقولون بمساواة جميع البشر عند الله ـ في ظلم المرأة على تلك الصورة الوحشية . وفي نظره ان معاملة الرجل للمرأة قد مرت في ثلاثة أدوار :

اولاً دور الخضوع والاذلال
ثانياً دور الشفقة والتسامح
ثالثاً دور العدل والانصاف

وليس ينكر ان من الازواج من هم سعداء راضون بحالتهم لما يسود بينهم من روح العدل والاحترام المتبادل . فهؤلاء يجب عليهم ألا ينفوا ما في غيرهم من صنوف الشقاء الزوجي بحجة انهم لم يختبروها بانفسهم . ولا ريب ان اضراراً جسيمة تنجم عن تبعية المرأة لزوجها وسلطته على ممتلكاتها . ولذا ينبغي أن تملك المرأة زمام نفسها وما لها قبل الزواج وبعده . كما يجب ألا تحرم بزواجها شيئاً من نفوذها ومكانتها

اما اذا لم يكن الزوجان من أصحاب الاموال والاملاك وكانت نفقات الدار قائمة على أجور معينة او مكاسب محدودة فالافضل اذ ذاك أن يقسم العمل على هذه الصورة : الرجل يعمل في خارج المنزل للارتزاق والمرأة تعمل في داخله فتدبر شؤونه وتعنى بجميع لوازمه . وبهذا تحمل قسطها من اعباء الزواج ـ فضلاً عن مشاق الامومة . وهب ان الاحوال اضطرتها هي ايضاً للارتزاق فليس من العدل أن تسلم مكاسبها

لى زوجها ليضيعها في الحانة ـ وهو المشاهد في كثير من الاحيان [١] . فهذا الظلم ليس الا نتيجة احتياز الرجل للسلطة السياسية وسنه القوانين التي تلائمه . ولن تكون القوانين عادلة فيما يخص النساء اذا لم يشتركن في وضعها . ولذا لا يرى ميل خلاصاً من هذه الحالة الا بتخويل المرأة حق الانتخاب على وجوبه : اي أن تنتخب وان تنتخب

رأى سكريتان

أما سكريتان فقد ذهب الى نحو ذلك لاسباب شبيهة بالاسباب التي ارتآها ميل . قال : « ان الشريعة التي وضعها معشر الرجال وحدهم تجعل الزوجة خادمة والفتاة الفقيرة متاعاً » . أما علاج هذه الحالة السيئة فهو مشاركة المرأة للرجل في سن القوانين . قال : « لن تنال المرأة حريتها ما دامت محرومة حق الانتخاب ـ مهما تكن مقاصد اهل القانون حسنة من جهتها . . . والحقيقة ان الجنس القوي لم يعد المرأة الى هذا اليوم الا وسيلة للتناسل أو مخلوقاً للهو . . . فعلى الزوجة بحكم القانون ان تجلب للرجل شخصها ومالها بلا مقابل . وعلى الفتاة الفقيرة ان تختار بين الموت جوعاً والسقوط في وهدة الفساد كما ان للرجل ان يغويها و يسلبها شرفها . . . ومهما تكثر الاحتجاجات في هذا الشأن فليس يرجى فيه اصلاح حقيقي الا بمنح النساء حق التصويت . ولم يسمع ان طائفة صاحبة امتيازات تنازلت عن امتيازاتها من تلقاء نفسها »

تمحيص المسئلة

ولكن المسئلة ليست على تلك البساطة . فانها شديدة التعقيد و يدخل فيها عوامل مختلفة لا بد من اعتبارها جميعاً . ولا يمكننا ان نفصل مسئلة حقوق المرأة من مسئلة تكوين العائلة التي هي أساس النظام الاجتماعي كله

فلندرس هذا الموضوع بما يستحقه من العناية متجنبين المغالاة في أحد طرفيه . وان من الحكمة في المسائل العملية ـ ولا سيما فيما يخص السياسة المدنية ـ « ان يجتنب الانسان تعكير ما هو صاف » . على ان ذلك لا يمنعنا من البحث عن مساوىء الحالة

(١) قد خولت القوانين الحديثة الى المرأة حق الاستيلاء على مكاسبها وعلى الخصوص القانون الفرنسي الصادر سنة ١٩٠٧

النسائية ووصف العلاجات الملائمة لها

ارى من السائغ لنا ـ أولاً ـ ان نقرر هذه الحقيقة الاساسية : وهي ان النساء اللواتي يتزوجن زيجة هنيئة ويعاملن معاملة حسنة لا يخطر لهن التشكي من حالتهن . اذ يحلو لهن الخضوع للرجل فلا يطلبن تغييراً او تبديلاً فيما هن عليه . لانهن يدركن بفطرتهن ان نظام الطبيعة يقضي بذلك . وقد سلم ستيورت ميل نفسه بصحة هذا القول . ومما قاله في هذا الشأن انه لو أتيح للنساء جميعاً ان يتزوجن بازواج صالحين لم نسمع تململهن ولم يكن ثمت اثر للمسئلة النسائية ـ لا من الوجهة المعنوية اذ لا يخشى مع الحب والاحترام المتبادلين من الظلم والاستبداد ، ولا من الوجهة الاقتصادية اذ يتعاون الزوجان في النفقة بضم دخليهما اذا كانا من أهل اليسر أو بعمل الزوج وتدبير المرأة اذا كانا من العامة . فهذا هو مبتغى الطبيعة الذي لا جدال فيه : وذلك أن يعمل الرجل خارج المنزل ليكسب ما يسد به نفقة الاسرة وأن تدبر المرأة شؤون دارها بالحكمة والتوفير وأن تربي اولادها بما يلزمهم من العناية والرعاية

واذا اضطرت الى العمل للارتزاق فذلك في نفسه رزء على الاسرة ولا سيما اذا استغرق عملها معظم وقتها وحملها على اهمال اولادها . فلابد من التحوط لتلك الحالة . كذلك يجب الاهتمام لامر المرأة التي تتزوج من يظلمها وهي عاجزة عن حماية نفسها ، ولامر الفتاة الفقيرة ، واليتيمة المعدومة الاهل والسند ، والارملة المسكينة يحيط بها اولادها الجائعون ، والمرأة التي يفرض عليها اعالة أسرتها لطارئ افقد زوجها ـ فتلك بعض البنود التي تتألف منها المشكلة النسائية

واذا امعنا النظر في تلك المشكلة وجدنا انها تنشأ عن ثلاثة أسباب رئيسية :

اولاً العزوبة القهرية التي يرغم عليها عدد غفير من الشابات

ثانياً الزيجة الرديئة التي تجعل المرأة تحت رحمة زوج قاس مستبد

ثالثاً الزواج في حالة الفقر والشقاء ، والترمل مع العجز عن القيام بأود الاسرة

واعتقادي الصميم انه لو أتيح لنا ابطال هذه الاحوال ـ التي هي منشأ ما تتحمله المرأة من الحيف والالم ـ تبطل اذ ذاك المشكلة النسائية بتمامها . فكل مسعى يرمي الى ملافاة ذلك او تخفيفه يعد خطوة في سبيل الحل المطلوب . فلنر اوجه الاصلاح في الاحوال المتقدم ذكرها ولنقابل بين ما تم من هذا القبيل وما لم يتم بعد

اصلاح التعليم النسائي

التعليم اول علاج لحالة المرأة بل هو أساس سائر العلاجات . فبالتعليم ـ وبه وحده ـ يتسنى لها أن تنال ماتبتغيه من المساواة المعنوية . وقد شهدنا في العصر الحديث تقدماً باهراً من هذا القبيل ولا سيما في بضعة العقود الاخيرة . فقد خطا تعليم البنات خطوات واسعة حتى اصبح الفرق عظيماً بين بنات هـذا الجيل وأمهاتهن وجداتهن . ولئن ظهر في الاجيال السابقة نساء نبغن في الادب فلم يكن ذلك الا من قبيل الشذوذ . فقد كان سواد النساء في حالة جهل شديد ـ سواء في ذلك الطبقات السفلى والطبقات المتوسطة بل اكاد اقول الطبقات العليا ايضاً . فانه كان يكفي المرأة « أن تعرف كيف تصلي وتحب وتخيط وتغزل » كما جاء في احدى الروايات المجونية الشهيرة (١)

أما اليوم فقد انتشر تعليم البنات في جميع الممالك الاوربية . فالتعليم الاولي في فرنسا اجباري ومجاني للبنين والبنات على السواء . كذلك انتشر فيها التعليم الثانوي وكثرت مدارسه ـ الاميرية منها والخصوصية . أما التعليم العالي فمباح ايضاً للشابات في اقسامه الاربعة : الآداب والعلوم والطب والحقوق . والمساواة تامة بين الجنسين في شروط الدخول والامتحانات . والحال كذلك في ايتاليا فانها نظيرة فرنسا في مساواتها بين الشبان والشابات من هذا القبيل

أما في المانيا (وفي النمسا ايضاً) فلا تزال معظم الجامعات مقفلة في وجه الشابات . واما في انكلترا فلهن مدارس عالية خاصة بهن منها مدرسة للطب في لندن فضلاً عن الجامعات التي قبلتهن في صفوفها . ولكن الجامعتان الكبيرتان (اكسفرد وكمبريدج) لم تقبلاهن رسمياً

ولعل الدول الاوربية الصغيرة ارقى من سواها في هذا المضمار . فالتعليم العالي مباح للبنات في اسوج ونروج ودانمارك وسويسرا وبلجيكا

وجملة القول ان هذه الحركة ذات شأن عظيم في التاريخ الاجتماعي الحديث . ولا بد أن تشمل البلاد التي لا تزال متخلفة في هذا المضمار . فالتعليم خير علاج لضروب الشقاء من الوجهتين المعنوية والمادية

(١) Et c'est assez pour elle, à vous en bien parler,
De savoir prier Dieu, m'aimer, coudre et filer

ولكن لا يكفي أن نعلم الشابات تعليماً عالياً اذا لم نأذن لهن بالاستفادة منه . بل قد يضر التعليم ان لم يقرن بالعمل . فلننظر الآن في المهن والحرف المباحة للنساء .

اباحة المهن للنساء

أرى في هذا الشأن انه تجب اباحة جميع المهن للنساء ما لم تتهدد هذه الاباحة كيان العائلة ـ التي هي جرثومة الاجتماع . على أن هذا القول يحتاج الى الايضاح ولا سيما أن فريقاً عظيماً من الرجال يترددون في شأنه ـ خوف تخشن النساء وتغلظ اخلاقهن اكثر من خوفهم منافستهن لهم في سبل الرزق

على اني اعتقد ان هذا الخوف وهميٌّ بدليل ما درسناه فيما تقدم من اخلاق المرأة . بل أرى ان الاستقلال الذي تكسبه المرأة من جراء ذلك لا يعود بالفائدة عليها وحدها فانه يفيد العائلة أيضاً كما يفيد الهيئة الاجتماعيـة بترقية الاخلاق المألوفة وحمل الرجل على تعديل خطته نحو شريكته . ولو تراءى لي في ذلك المنهج أقل خطر على العائلة لقاومته بكل قواي . ولكني أتوقع من ورائه رفعاً لشأن الاسرة اذ تخرج المرأة عن كونها مرغمة على قبول احدى حالتين تتساويان قبحاً وهما حالتا الاسترقاق والاسترخاء ـ أي ان تكون عبدة لسيدها أو اداة للزينة والزخرفة . ولست أرى في احتراف المرأة لاحدى الحرف التي قد تعينها على كسب رزقها حين تضطر الى ذلك ما يهدد الزواج أو الاسرة أو الهيئة الاجتماعية

ولكن لئن وددنا ان تباح المهن للمرأة المسترزقة فالافضل لها ان تختار منها ما يلائم طبيعتها ومزاجها وما لا يمس فيها صفات الانوثة وروح الظرف والرقة . فمن الاعمال ما قد جُعل للرجال دون سواهم . على ان بعض السيدات الراتعات في الهناء والرخاء يشمئززن من نزول جنسهن في هـذا الميدان . قالت احداهن : « جعلت المرأة لتنظر من تحت الى فوق ولتكون امرأة في المقام الاول . ومن المستهجن ان تبغي النظر من فوق الى تحت وان تكون حامية الرجل » . حسن . ولكن لا يبرحنَّ من الذهن ان أول ما تحتاج اليه المرأة انما هو ان تعول نفسها ـ هذا اذا لم تضطر الى عول اولادها أو زوجها فضلاً عن نفسها . فلا لوم عليها اذا سلكت هـذا المسلك وهي مرغمة على سلوكه . وانما اللوم في كثير من الاحيان على الذين يخدمون النساء فيستنزفون ما فيهن

من صحة ونشاط مقابل أجور ضئيلة لا تقوم بأودهن . والحاصل مما تقدم انه تجب اباحة المهن للنساء ولكن تجب حمايتهن من استبداد المخدمين وكل ما من شأنه مس وظيفتهن الاجتماعية

التعليم الصناعي

الصناعات على الاجمال مباحة للجميع ـ الا بعض الصناعات التي تستدعي شروطاً معلومة وهي التي لا يمكن تعاطيها الا باذن خاص كالطب والمحاماة والصيدلة ونحوها . فالمرأة من الوجهة القانونية ان تختار أي مهنة تشاؤها ، وما يسري على الرجل في هذا الشأن يسري عليها . ولكن لكي لا تكون تلك الاباحة وهمية يجب ان تفتح لها أبواب التربية الصناعية . وقد أنشئت في أوربا مدارس كثيرة لتعليم البنات الصناعات الملائمة لهن كالصيدلة والرسم والطب والنجارة الدقيقة وزراعة الزهور والتصوير الشمسي وصناعة الساعات والحلويات الخ . . . ولا يزال مجال التقدم واسعاً في هذا المضمار

المرأة الطبيبة

ولا يستسهلن الرجل تحريم بعض المهن على المرأة استناداً على حجج تافهة أو وهمية . فلقد قام جدال شديد على اثر دخول النساء في سلك التطبيب وعد الكثيرون هذه المهنة خارجة عن دائرة الكفاءة النسائية . ولكني لست أجد ما يدعم هذا النظر . أجل ان العلوم الطبية شاقة تستدعي جلداً ومثابرة . ولكن الاختبار قد دل على انها ليست فوق قدرة النساء ولا ارى قط مانعاً عقلياً دون قيام المرأة بمهمة التطبيب ولا سيما اذا وجهت عنايتها الى الاولاد والنساء

ولعل الافضل لها أن تكون في غنى عن تلك المهنة . ولكنها اذا كانت مضطرة اليها فما المانع لها من احترافها وكيف تسوغ لنا الحيلولة دون استرزاقها ؟ بل بأي حق نسمح لها ان تتوظف في البوسطة والتلغراف والسكة الحديدية ونمنعها من ممارسة التطبيب

واذا قال معترض انه من الصعب على المرأة أن تضطر الى الخروج من منزلها في الليل لعيادة مريض في حالة الخطر او معالجة امرأة على وشك الوضع او نحو ذلك من الاحوال القاهرة فلينظر الى ما تقوم به المرأة المتحضرة عادة من الزيارات والاجتماعات ـ في الليل وفي النهار ـ مما لا يجدي نفعاً ولا يعود بفائدة

ومهما يكن الامر فلا جدال في أن المرأة اقدر من الرجل على تطبيب بعض الامراض ومعالجة بعض الاشخاص

الوظائف العمومية

نريد بالوظائف العمومية تلك التي جعلت لخدمة الجمهور. ويجوز لنا التمييز بين نوعين منها ـ وان يكن من الصعب بيان الحد الفاصل بينهما : الوظائف العليا التي يباشر اصحابها السلطة الحكومية ، والوظائف الثانوية التي ليس لشاغليها سلطة جديرة بالذكر. وقد قُبلت النساء في الوظائف الصغيرة منذ زمن بعيد ولم يتح لهن بعد ـ الا في حوادث استثنائية ـ تقلد السلطة الحكومية الفعلية.

ولكن الدلائل تدل جميعاً على ان المرأة ظافرة لا محالة في هذا المضمار ايضاً. فانها تشغل اليوم كرسي القضاء في بعض جهات الولايات المتحدة كما انها في فرنسا تراقب التعليم في مدارس البنات العالية وتجلس في « مجلس المعارف الاعلى » الذي له سلطة لا يستهان بها. ولها غير ذلك من الوظائف السياسية والادارية والقضائية في جهات مختلفة

ولا بد مع ذلك التطور من توسيع سلطة المرأة من الوجهة القانونية حتى لا تكون تحت رحمة زوجها وحتى يتيسر لها القيام بالاعمال القانونية التي تهمها من غير الاستعانة به. ولا ريب عندي أن الاستقلال الشخصي خير مدرب على الجد والكرامة. وقد دلت الاحصاءات على تزايد الفساد وتناقص المواليد بين اكثر الامم حجراً لحرية المرأة وأشدها تحريماً عليها

الفصل الثالث عشر

مصير المرأة (تابع)

مسئلة الحقوق السياسية

لعل هذه المسئلة أدق المسائل الداخلة في مطالب النساء . فقد رأينا انه من الحكمة اباحة المهن لهن وانشاء المدارس الصناعية الخاصة بهن ، فضلاً عن ورودهن مناهل الفنون والعلوم والآداب . على اننا لا نتمنى ان تزج المرأة بنفسها دفعة واحدة في هذه الابواب المفتوحة لها حديثاً . فخير الاصلاح ما تم بالتدريج . وفي نظري ان أفضل ما حواه كتاب ستيورت ميل المشار اليه سابقاً هو ذلك القسم البليغ الذي بين فيه ما يكون من شعور المرأة بشأنها وكرامتها ورفعتها حين يتاح لها ان تحيا حياة تامة وتطمح الى حيازة فضائل غير فضيلة الامتناع عن نوع معلوم من الزلات

قال جول سيمون : « اننا في معاملتهن نبدأ عادة بالرفض ثم لا نلبث ان نمنحهن مطالبهن . . . فيجب منحهن كل ما يطلبنه الا اذا طلبن ان يكن رجالاً . لان ذلك يكون من شقائنا ومن شقائهن ايضاً »

ولكن ما المراد من ذلك ؟ وما هو الحد الذي اذا جاوزته المرأة تعدت على خواص الرجولة ؟ وما شأن الحقوق السياسية في ذلك ؟

لا نستطيع الاجابة على هذه المسئلة بجواب واحد ينطبق على جميع الامم . فانها تتفاوت في المزاج والتقاليد والرقي وما يصلح في واحدة منها لا يصلح حتماً في غيرها (١)

أما فيما يخصنا نحن الفرنسيين فيتراءى لي ان الوقت لم يحن بعد لهذا الانقلاب . وعندي انه يجب الابتداء بمنح المرأة المزوجة شيئاً من الاستقلال في ادارة أمورها بحيث لا تكون خاضعة للسلطة الزوجية ذلك الخضوع الذي يفقدها ذاتيتها ويشل يديها عن كل عمل ،

---

(١) في آخر الكتاب فصل اضافي بينا فيه حالة المرأة الواقعية في الممالك المتمدينة لى تاريخ كتابة هذا الكتاب (سنة ١٩١٨)

كما أنه من الواجب أيضاً حماية الفتاة ـ ولا سيما الفتاة الفقيرة ـ من الاخطار التي تكتنفها

على أن بعض زعماء الحركة النسائية يدعون أن اقرب طريق الى اصلاح حالة المرأة ـ سواء في ذلك المزوجة وغير المزوجة ـ انما هو منحها حق الانتخاب الذي يخولها السلطة اللازمة لتحوير القانون وجعله في مصلحتها. ولكننا اذا منحنا هذا الحق للعازبات والارامل دون سواهن ـ كما هو المطلوب في الغالب ـ كان عملنا هذا مجحفاً بالمرأة المزوجة. فان روح العدل لاتقبل تميز غير المزوجة على المزوجة في هذا المضمار. أما اذا منحناه المزوجة أيضاً فانه يخشى اذ ذاك من تراخي الرابطة الزوجية وزعزعة الوحدة العائلية، في حين ان مصلحة المرأة ومصلحة المجموع تستدعيان توثيق هذه الرابطة وتوطيد تلك الوحدة

بل هل تغنم المرأة ربحاً حقيقيًا اذا فتح لها ذلك الباب؟ اني ميال الى الاعتقاد بان المرأة تفقد بهجتها ورونقها وبهاءها بل سعادتها أيضاً حالما تهجر دارها وتنزل ميدان المنازعات السياسية. فانها انما جعلت لتكون تحت حماية زوجها ولتشاركه في افراحه واحزانه. وترى كثيرات من المستنيرات يشعرن هذا الشعور فلا يعبأن بالحركة النسائية في صورتها تلك بل بينهن من يقاومنها في الفعل

على ان بين النساء من يجبن على ذلك بقولهن: «انا على يقين من ان مساواتنا بالرجال ستفقدنا شيئاً من رشاقتنا وظرفنا وخفة روحنا. ولكننا نرضى بهذا الثمن ندفعه لنيل حريتنا واستقلالنا. وهذا شأننا نحن دون سوانا»

ولكن هذا القول ليس صحيحاً فان المسألة لاتخص المرأة وحدها. ولو كان هذا الامر مرتبطاً بمصلحتها فقط لما حق لنا أن نحول دون اختيارها المسلك الذي يروق لها. ولكنه في الحقيقة مرتبط بمصلحة الاجتماع وهو يمس الاساسات التي يقوم عليها بناؤه

ولعلَّ أشد ما يخيفني من تهور المرأة في هذا الموضوع ما كان من تهور الرجل فيه. فقد دلنا الاختبار ويدلنا كل يوم على المساوئ الناجمة عن نظام الانتخاب العام ولا سيما قبل أن يستكمل الشعب تهذيبه السياسي. وهذا التهذيب يستدعي زمناً طويلاً كما لا يخفى. واذا كان الرجال ـ مع اختبارهم الطويل ـ لا يزالون متخلفين فيه فكيف بالمرأة التي تعدُّ أميَّة في هذا المضمار. ولئن لم اوافق سبنسر على قوله ان المرأة اذا منحت سلطة سياسية استخدمتها لتوطيد الاحزاب الرجعية ومناصرة الحكومة التي تُعنى بالزخارف

والتقاليد فاني أخشى مع ذلك أن تنقضي الاجيال الطويلة قبل أن يتيسر للنساء اكتساب روح العدل والانصاف ـ وهو ما نشكو من نقصه في معشر الرجال

والارجح ان المرأة ـ اذا منحت حق التصويت ـ تسترشد الرجل الذي تحبه وتوقره . فكأنها تكتفي بتثنية صوته اذ ذاك . وأما اذا اتفقت النساء على مقاومة الرجال بحيث ينشققن عن ازواجهن وآبائهن واخوتهن فما أقبح ذلك المشهد وما اتعس الجماعة التي تهبط الى ذلك الجحيم !

قالت مدام دي ريموزا : « اننا حالما نقدم على تحريك ساكن في الامور الاجتماعية الجوهرية يبدو فيها التقهقر والانحلال »

أجل لست اعتقد ان تصويت النساء يخفف من مصائبنا بل انه يضاعفها على كثرتها . هذا ما أراه في شأن الحاضر . أما المستقبل البعيد فلا اجزم في شأنه . ولعل الزمن يستدعي تدبير حكمي السالف . فما علينا الا الانتظار . وقد رأينا في الرجال مساوئ الانقلاب السريع والاصلاح المعجَّل . فلنتحرز من هذا القبيل فيما يخص النساء

قال امار (وهو من رجال الثورة الفرنسية) : « لنعتبر قصور الرجال في تربيتهم السياسية ، فهي لا تزال في مهدها . أما النساء فلا يزلن دون الرجال استنارة ـ زد على ذلك ميلهن الفطري الى التطرف وهو ما يخشى أن يكون وخيم العاقبة في المسائل السياسية . . . » ومن ذا الذي ينكر أن هذا التحذير يصح ابداؤه في هذا اليوم ايضاً . فهل من الحكمة أن نزيد ذلك العامل الجديد على عوامل الفوضى السياسية التي نتخبط فيها

قد يتغير هذا الحكم ـ كما قلت ـ بعد زمن طويل . أما اليوم فان لدينا من أوجه الاصلاح ما هو ألزم لنا وأشد ملاءمة لاحوالنا . وتلك الاوجه كافية لتشغل جيلنا بل لتشغل بضعة اجيال قادمة

بل هل ابوح برأيي الصريح ؟ لا اعتقد البتة ان تلك هي وجهة التقدم . ولكن لا يحملنَّ كلامي هذا على غير محمله . فاني في مقدمة القائلين بالمساواة المعنوية بين الرجل والمرأة أي بتساويهما في الشأن والكرامة والتهذيب . فلا خطر مطلقاً من هذا القبيل ما دامت المرأة تدرك انها امرأة قبل كل شيء أي انها جُعلت لتكون زوجة واماً في المقام الاول ، كما جُعلت لتدير المملكة البيتية وتتولى مهامها وشؤونها حتى تخيم عليها السعادة وتسود فيها المحبة والراحة والطمأنينة

ان المثل الاعلى للبشر يقضي بان يكون بين الجنسين ارتباط وثيق مع تباين وظائفهما . فتماثل الجنسين ليس مشاهداً الا في الشعوب المتوحشة . وكلما ارتقى الناس تميز كل جنس عن الآخر وتحددت وظائفه . هذا هو بلا ريبٍ اتجاه الرقي البشري . والمرأة لا تبغي في الحقيقة غير ذلك . فلنحسن حالتها بكل الوسائل الميسورة — في الحياة الزوجية وخارج الحياة الزوجية — ولنكن عادلين في معاملتها . ولكن لا يبرح من ذهننا مع ذلك ان أفضل وسيلة لاسعادها انما هي معاونتها تأليف على العائلة

ولنحذر التطرف في الروح الاستقلالية التي تفشت بين الافراد في هذا العصر — تلك الروح التي تهدد كيان العائلة وتلاشي الروابط المقدسة بين اعضائها بعضهم ببعض . فلا يذهب عن بالنا أن اتحاد العائلة وتماسكها أساس كل سعادة اجتماعية . واذا سلمنا بذلك سلمنا أيضاً بانه في الشؤون السياسية يكفي أن يكون الرجل نائباً عن الاسرة

فلتترك المرأة لرجلها ميادين السياسة والقتال ولتصرف همها الى تضميد الجراح وتسكين الآلام . بل هب انها استطاعت القيام بمهامنا فليس ذلك بذي شأن مادمنا نحن لا نستطيع القيام بمهامها التي جُعلت لها

واذا أحبت المرأة ان تخدم وطنها فانما تستطيع ذلك بتربية اولادها ليكونوا يوماً ما خدَمة صالحين لبلادهم يدركون معنى الواجب والتعاون والتضحية . بذلك تقوم بواجبها خير قيام ، وبذلك تسعد الأمة وتحيا وتتقدم

انتهى

فصل اضافي

تاريخ الحركة النسائية

في العصر الحديث

رأينا ـ اتماماً للفائدة ـ ان نذكر تاريخ الحركة النسائية الى حين كتابة هذا الكتاب في منتصف سنة ١٩١٨ (أي بعد انقضاء اربع سنوات من الحرب الاوربية) حتى يتضح لنا ما نالته النساء من الحقوق في الدول المتمدينة ولا سيما في اثناء الحرب . فلقد حملت النساء من اعبائها قسطاً لا يستهان به حتى قال احد الكتاب « ان ما خسرته البشرية من القدرة والنشاط بفقد الرجال قد استعاضت عنه بما نالته النساء من البراعة والتقدم في الصنائع والفنون »

ويرجع المطالبون للنساء بالحقوق السياسية ـ دعماً لقضيتهم ـ الى الزمن السابق للدور التاريخي . فيقولون ان نظام الامومة منتشر بين جميع الامم في اول أمرها ، ولا يخفى انه كان للمرأة فيه المقام الاول . ثم يتدرجون مبينين ما كان من مداخلة المرأة في الشؤون السياسية في أزمنة وأمكنة مختلفة مما ليس هذا محل الافاضة فيه . وانما غرضنا ان نبين ما كان من تلك الحركة في العصر الحديث أي من ايام الثورة الفرنسية الى هذا اليوم . ويجدر بنا ان نقسم هذه المدة الى قسمين : قسم يشمل المدة السابقة للحرب الاوربية (من ١٧٨٩ ـ ١٩١٤) . والقسم الاخر يتناول تلك الحرب في سنواتها الاربع الماضية (من ١٩١٤ ـ ١٩١٨)

اولا - من ١٧٨٩ الى ١٩١٤

﴿ فرنسا ﴾ ان الثورة الفرنسية التي هدمت كل قديم ـ مع انها اعترفت ضمناً بمساواة الجنسين ـ قد خصت حق التصويت بالرجال وحدهم . على انه قد قام في ذلك العهد نفر من النساء المستنيرات للمطالبة بالمساواة المطلقة منهن اولامب دي جوج التي طلبت « اعلان حقوق المرأة » اسوة « باعلان حقوق الرجل » . وانضم الى هذه الحركة نفر ليس بقليل من الرجال والنساء وتألفت الاندية لهذ الغرض والقيت الخطب وعقدت الاجتماعات . ولكن تلك الحماسة لم تلبث ان خمدت حتى انه لما استأثر

نابوليون بالحكم بعد عودته من مصر لم يكن لها في فرنسا أقل أثر . ولكن تلك الفكرة بعثت بعد حين ولاسيما في سنة ١٨٤٨ (وهي السنة التي اعلنت فيها الجمهورية للمرة الثانية) واتخذت المساعي اذ ذاك وجهة عملية . غير انه حالما انقضى عهد الجمهورية الثانية (سنة ١٨٥٢) سكنت الحركة . أما الجمهورية الثالثة (الحالية) فلئن كان للمرأة فيها شأن لا يستهان به اذ فُتحت لها ابواب كثيرة كانت مغلقة في وجهها فانها لم تنلها حق التصويت السياسي

﴿ انكلترا ﴾ يرجع تاريخ مطالبة النساء بالحقوق السياسية في انكلترا الى سنة ١٧٩٠ وأول المطالبات بها ماري ولستونكرافت . وليس من يجهل ما كان من معاضدة ستيورت ميل الفيلسوف الانكليزي للنساء . فقد قدم لمجلس العموم سنة ١٨٦٠ بصفته احد نوابه عريضة امضتها ١٤٩٩ امرأة يطلبن فيها تحريرهن السياسي . ولكن المجلس رفض الطلب . وقد تبع ميل جون برايت ففاز فوزاً جزئياً اذ منحت النساء في سنة ١٨٦٩ حق التصويت فيما يخص الشؤون البلدية . ومن ذلك الحين أخذت سلطة النساء الانكليزيات في الاتساع : ففي سنة ١٨٧٠ منحت المرأة حق التصويت وحق العضوية في المجالس المدرسية (Schools Boards) وفي سنة ١٨٧٥ منحت حق التصويت في انتخابات مجالس الاعانة العمومية Boards of Guardian وفي سنة ١٨٨٨ حق الانتخاب في مجالس المقاطعات وفي سنة ١٨٩٤ حق العضوية في مجالس الاعانة العمومية وفي سنة ١٩٠٧ حق العضوية في مجالس المقاطعات . على ان تلك الخطوات لم تقنع النساء الانكليزيات فانهن انما يطلبن حق الانتخاب وحق العضوية في البرلمان . وقد تقدمت اقتراحات كثيرة في هذا الشأن ولا سيما سنة ١٨٧٠ و ١٨٨٤ و ١٩١٠ و ١٩١٣ كانت على وشك النجاح

ويجدر بنا التمييز في انكلترا بين فريقين من المطالبات بالحقوق السياسية : فريق يستخدم الطرق السلمية لنيل غرضه ، وفريق يعمد الى الوسائل الجبرية والمظاهرات الفعلية وهو فريق السوفراجيت Suffragettes . ومهما يكن الامر فان الجمعيات النسائية قبل الحرب كانت تضم اكثر من ٦٠٠ ٠٠٠ امرأة

﴿ المستعمرات الانكليزية ﴾ وفي حين لم تمنح انكلترا رعاياها من الجنس اللطيف حق الانتخاب للبارلمان سبقتها مستعمراتها في هذا المضمار ولا سيما استراليا

ونيوزيلندا . ففي سنة ١٩٠٧ كانت النساء قد نالت فيها كل الحقوق السياسية التي طالبت بها وآخرها حق التصويت في انتخابات البرلمان وحق العضوية فيه

أما في كندا فلم تنل النساء الا حق الانتخاب لمجالس البلديات

﴿ البلاد السكندينافية ﴾ ان البلاد السكندينافية اقدم البلاد اعترافاً بحقوق النساء . ففي اسوج كان لصاحبات الاملاك نفوذ سياسي في المجالس المحلية منذ زمن بعيد . وفي سنة ١٨٦٢ منح حق لانتخاب البلدي للواتي يدفعن ضرائب تقدر بنحو ٧٠٠ فرنك في السنة على الاقل . ثم منح هذا الحق لجميع النساء بلا تمييز في سنة ١٩٠٩ . ومع ذلك لم تنل المرأة حق الانتخاب للبرلمان . كذلك كان الحال في الدانمارك

أما في فنلندا ونروج فقد حازت النساء قبل الحرب بسنوات حقي التصويت والعضوية في المجلس النيابي فضلا عن المجالس البلدية والمحلية

﴿ الولايات المتحدة ﴾ واما في الولايات المتحدة فان الفرق ظاهر بين الولايات المستجدة والولايات القديمة . ففي الولايات الشرقية (وهي اقدمها) لم تنل المرأة الا نجاحاً ضئيلاً اذ منحت حق التصويت للمجالس المدرسية (في ١٨ ولاية) وحق التصويت فيما يختص بفرض الضرائب (في ٣ ولايات) ولكنها حرمت هذا الحق فيما يتعلق بالمجالس البلدية والمجالس النيابية

أما في الولايات الغربية فقد نمت الافكار الحديثة وانتشرت انتشاراً عظيماً . فانك تجد المساواة تامة بين الجنسين في الحقوق السياسية في ولاية ويومنغ منذ سنة ١٨٦٩ وقد تبعتها ولايات كولورادو ، يوتا ، ايداهو ، واشنطن ، كاليفورنيا ، اريزونا ، كنزاس ، اوريغون ، نيفادا ، مونتانا (سنة ١٩١٤)

﴿ المانيا والنمسا ﴾ ان الدول الجرمانية متخلفة في هذا الشأن عن الدول السكندينافية والسكسونية . فللمرأة في المانيا حق الانتخاب البلدي ضمن دائرة محدودة و بشروط معينة . ويقال مثل ذلك في النمسا

ثانيا — من سنه ١٩١٤ الى ١٩١٨

لقد كانت الحرب الاوربية دافعاً للحركة النسائية فنالت النساء في مدة قصيرة ما لم ينلنه في سنوات طويلة

ففي انكلترا نجحت الحركة النسائية نجاحاً عظيماً اذ ناصرها الجميع من اشتراكيين واحرار ومحافظين ـ الا نفراً قليلاً من الرجعيين ـ فقد عد الانكليز منح المرأة الحقوق السياسية اجدر مكافأة لها على خدماتها الجليلة في اثناء الحرب . فقامت بهذه الدعوة امهات الجرائد الانكليزية كالتيمس والديلي ميل . وفي نوفمبر سنة ١٩١٧ اقتُرح في البرلمان « منح حق الانتخاب لكل امرأة بلغت من العمر ٣٠ سنة على شرط ان تكون مزوجة برجل له حق الانتخاب وان تكون حائزة لحق الانتخاب البلدي او حاصلة على لقب من الالقاب العلمية » . ومع ان بعض المحافظين قاوموا هذا الاقتراح في مجلس اللوردة فقد نال الاغلبية وأصبح قانوناً وبه حازت ٦٠٠٠٠٠٠ امرأة انكليزية الحقوق السياسية التامة

أما روسيا التي هي أحدث الدول الديمقراطية فقد حرَّرت المرأة دفعة واحدة من كل قيد ومنحتها حق التصويت وحق العضوية في المجالس النيابية المختلفة . ولم يكن للمرأة الروسية فيما مضى الا حق ضئيل في الانتخابات البلدية

وقد تقدمت قضية النساء في الولايات المتحدة بعد الحرب فزاد عدد الولايات التي خولتهن الحقوق السياسية وكان أعظم فوز لهن في ولاية نيويورك التي كانت تعد مركزاً لمقاومة الحركة النسائية

ونالت النساء حقوق الانتخاب في عدة مقاطعات كندية

وفازت المجريات اثناء الحرب فوزاً جديراً بالذكر اذ منح حق التصويت للواتي يدفعن قدراً معلوماً من الضرائب . والامل معقود بتوسيع مجال هذا الحق

ولم يقتصر فوز النساء على البلاد المحاربة . فقد نالت نساء الدانمارك حقوقهن في سنة ١٩١٥ . كذلك ابيح للنساء دخول البرلمان الهولندي ولكن من دون ان يكون لهن حق التصويت فيه

أما فرنسا فانها لم تمنح المرأة حقوق الانتخاب السياسي ولكن الحركة النسائية فيها آخذة في التضخم والمتوقع ان تمنح النساء على الاقل حق الانتخاب للمجالس البلدية ومجالس المقاطعات